٧

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ مايو سنة ١٩٤٩ ٣ رجب سنة ١٣٦٨

# طوفان القدم

## صراع بين اللاّهوت والعلم

## — ٣ —

### طوفان نوح
### ومحاولة التوفيق بين اللاهوت والعلم

نظرية ان الحفريات سببها الطوفان ـ قبول هذه النظرية عند الكاثوليك والبروتستانت ـ بيرنت ، وبستون ، وودوارد ، مازوربيه ـ إنكريز ماذر ، شوخزر ، نظرية فولتير في الحفريات — جهود ضائعة في سبيل تنوير رجال الكنيسة من طريق النظر العلمي ـ تقدم العلم بتؤدة ـ اعمال كوفييه وبرونيار ـ معارضة غرانفيل بن ـ انحياز سيرليل وبوكلاند الى الناحية العلمية ـ تسليم اللاهوتيين ـ بقايا المعتقد القديم ـ القضاء الاخير على النظرية التقليدية باستكشاف القصة الكلدانية عن الطوفان ـ نتائج المعارضة اللاهوتية للعلم .

قبل نهاية المعركة التي أتينا على وقائعها في الصفحات السابقة بزمان طويل ، بل في عهد مبكّر جدًّا ، اتَّضَح لبعض المدافعين عن الأرثوذكسية ممن امتازوا بعمق الفكرة والتبصُّر ، ما في الأسلحة المدرسية من الوهن وقلة الجدوى . ولمّا تجلت لهم تلك الصعوبات التي اكتنفت الحملة اللاهوتيـة المألوفة على العلم ، بادر

كثير منهم إلى العمل على عقد هدنة . بذلك بدأ الطور الثالث من أطوار تلك الحرب – طور المحاولة في سبيل التفاهم والتوفيق بين الناحيتين .

أما الوسيلة التي لجأ اليها هؤلاء « التفاهميون » أو « التوفيقيون » فانحصرت في القول بأن الحفريات هي من مبدعات طوفان نوح .

كان هذا الاتجاه اتجاهاً قويًّا ، بمقتضى أنه قائم في الظاهر على نص الكتب المقدسة . وكان له ، بالإضافة إلى ذلك مبرّر كنسيّ ذو بال ، بحكم أن بعض آباء الكنيسة كانوا قد قالوا بأن البقايا الحفرية ، حتى تلك التي وجدت في أشمخ الجبال ، إنما تمثل حيوانات أبادها الطوفان . وقد استمسك « ترتليان » بهذه النظرية استمساكاً ، كما ظن القديس أوغسطين أن سِنّاً حفرية عثر عليها في شمال أفريقية ، هي واحدة من أسنان عملاق من العمالقة التي نوهت بهم الكتب المقدسة .

* * *

في القرن السادس عشر خاصة ، اتجه الرأي نحو هذه النظرية وأضفى عليها أولئك الذين اقتنعوا بتفاهة التعليلات المدرسية ، قيمة ووزناً كبيراً . ولقد قبلها رجال من أعظم رجال المعسكرين ، الكاثوليكي والبروتستانتي . وكان مارتن لوثر أعظم رجال اللاهوت الحديث الذين روَّجوا لهذه النظرية . فقد وضح له أن العبارات والاستطرادات المدرسية ، لا تستطيع أن تواجه الصعوبات التي تثيرها قضية الحفريات ، فنزع بالطبع إلى إثبات أن أصلها إنما يرجع إلى طوفان نوح .

بهذا سيطرت تلك الفكرة على العالم النصراني ، وزُيِّن للناس أنه ما من شيء في مستطاعه الوقوف في سبيلها . غير أنها قبل نهاية القرن السادس عشر اعترضتها بعض العقبات . فقد أوضح « برنارد باليسّي » ، وهو من أبعد علماء فرنسا نظراً وأدقهم ملاحظة ، كما أنه من أثبت النصارى عقيدة وإيماناً ، أن هذه النظرية فاسدة

من أساسها . وأظهر غيره من الباحثين ذوي النُّهى ، وبخاصة في إيطاليا ، صحة رأيه . ولكن ذلك كله ضاع هباء وذهب سُدًى . تبدد كل جُهد بذله رجال طيبون أمناء في محاولة الكف من تلك الأضرار التي رأوا أنها سوف تصيب الدين إذا ما ربط بنظرية علمية ، كان من المحقق أنها ستنفجر فتذهب أباديد . وظلت نظرية أن الحفريات إنما هي بقايا الحيوانات التي أغرقها الطوفان ، العقيدة الراسخة للعديد الأكبر من زعماء اللاهوت زهاء ثلاثة قرون ، على أنها "النظرية المعقولة" وعلى أنها الطريق المختار للتقريب بين مقتضيات العلم والنصوص المقدسة . ومن أجل أن تؤيد هذه النظرية القدسية ، حفزت الهمم وبذلت الجهود ، من جانب الكاثوليك والبروتستانت على السواء .

قبلها الأب البنديكتي «كالمت» في فرنسا وبشر بها في كتابه عن «الانجيل» . حدث ذلك في أوائل القرن الثامن عشر ، إذ مضى معتقداً أن عظام "المستودون" التي عرضها "مازوريه" هي عظام الملك "طوطوبوقوس" Teutobocus ، واتخذها شهادة حية على وجود العمالقة الذين ذكرتهم المقدسات ، وعلى أن سكان الأرض الأولين قد طاح بهم الطوفان .

ولكن أعظم مؤيِّدي هذه النظرية ظهر في انجلترا . ولقد رأينا من قبل ، كيف أن "توماس برنت" عند انتهاء القرن السابع عشر ، قد مَهَّد الطريق في كتابه "النظرية المقدسة في الأرض" فنفى مستكشفات "نيوتن" وأظهر كيف أن الخطيئة قد حطمت أساس الغور الأعظم ، كما رأينا أن "وستون" في كتابه «النظرية الجديدة في الأرض» بتسليمه بعض الشيء وقبوله مستكشفات "نيوتن" قد أدخل في الأرض مذنباً ساعد على إحداث الطوفان . ولكن يوحنا وودوارد أستاذ كلية جريشام ، كان أنبه من هؤلاء أثراً وأعلى ذكراً . فقد كان زعيماً

من زعماء الفكرة العلمية في جامعة كمبردج ، ومن كبار المنقبين عن الحفريات العاملين على تفسير معانيها وغوامضها ، فحاز بعلمه أسمى مسوغات الاحترام والتبجيل . وفي سنة ١٦٩٥ نشر كتابه « تاريخ الأرض الطبيعي » ، فخدم به العلم من طريق أنه سلّم بحقيقة ثابتة ، وبذلك هدم الأساس الذي تقوم من فوقه النظرية القديمة في الحفريات . فقد أظهر أنها ليست من ألهيات الطبيعة ولا هي نماذج زج بها الخالق في تضاعيف الطبقات الأرضية لغرض غير مستبان ، بل إنها بقايا حقيقية لحيوانات كانت حية ، كما قال اكزينوفانس قبل ألفي سنة وبذلك أدّى خدمة عظيمة للعلم وللدّين . غير أن نصوص العهد القديم وقصة الطوفان وتلك العبارات المشهورة في رسالة القديس بطرس، قد أستقوت عليه بسلطانها العظيم ، فراح يقول بأن الحفريات قد خلفها طوفان نوح . ولقد ساعده سلطانه في أن يزوّد الحملة على العلم بقوة وعنفوان عظيمين : فعرض « مازوربيه » عظام مَموث عثر بها في فرنسا ، على أنها من عظام العمالقة الذين ذكرتهم المقدسات ، وفعل الأب طُروبيا نفس الفعل في اسبانيا ، وأرسل إنكريز ماذر إلى انجلترا بقايا عثر بها في أمريكا مؤيداً بها نفس الاتجاه .

ومن أجل أن يتم تثقيف المؤمنين في العلم اللاهوتي ، علقت تلك العظام التي هي عظام العمالقة المذكورة في الكتب المقدسة وعرضت علانية في الأسواق . ولقد رأى جوريو بعضها معلقاً في كنيسة من كنائس مدينة والنس . وعمد هنريون مدفوعاً بقوة تلك العوامل الى وضع قوائم حدد فيها هنريون جسوم أسلافنا في عصر قبل الطوفان ، فقضى بأن طول آدم كان ثلاثة وعشرين ومئة قدماً وتسع بوصات وأن طول حواء كان ثمانية عشرة ومئة وتسع بوصات وتسعة أجزاء من البوصة !!!

غير أن أعظم خدمة أدّيت للنظرية اللاهوتية قد جاءت من صقع آخر .

في سنة ١٧٢٦ استكشف شوخزر عظاية حفرية كبيرة ، فعرضها على الناس متخذاً منها شاهداً إنسانيًّا على الطوفان . ولقد استقبل ذلك الاستكشاف العظيم بالتهليل في كل مكان ، فقد خيل إلى الناس أنه لا يثبت أن البشر قد أغرقهم الطوفان لا غير ، بل يثبت أيضاً أن هناك عمالقة عاشوا من قبله . وكوّن نظرية أن ينابيع الغور الأعظم قد فجرتها يد الله بفعل مباشر ، وأن هذا الفعل ، إذ وقع أول شيء على محور الأرض ، قد أوقف الأرض عن حركتها الدورانية ، وفجّر ينابيع الغور الأعظم ، ففارت المياه المختزنة فيه ، وكان الطوفان . ولم تقف خدمته للعلم اللاهوتي عند هذا ، فإنه جهّز نسخة من الأناجيل زودها بعدد عظيم من الصور المحفورة التي تؤيد وجهة نظره ، وفرضها على القراء فرضاً وألزمهم إيّاها إلزاماً . ولقد اختصّ الطوفان من هذه الصور بأربعة وثلاثين .

في خلال هذه الأحداث مرت فترة كانت إلى الهزْل ، ولكنها كانت ذات أثر بالغ في الإرشاد وحسن التوجيه . ذلك بأنها تظهرنا على أن محاولة تحوير استنتاجات العلم بحيث توافق مقتضى العقيدة ، قد يُضِلّ التفكير الحرّ كما يُضل التفكير المقيد بالمقدسيات .

حوالي سنة ١٧٦٠ ترامى إلى فولتير خبر استكشاف حفريات بحرية عثر بها في أصقاع مرتفعة في مختلف أنحاء أوربا . كان لفولتير مذهب لاهوتي يؤيده ، بالرغم من معارضته الشديدة لكتب العبرانيين المقدسة . ولقد روّعه أن تتخذ هذا الاستكشاف سبيلاً إلى تأييد القصة الموسوية عن الطوفان ، فاستجمع كل قوته البيانية وراح يسخرها في تأليف أدلة وبراهين ليثبت أن تلك البقايا هي بقايا أسماك حملت لتتخذ طعاماً ، فلما فسدت ألقى بها المسافرون في الطريق ، وأن الأصداف الحفرية إنما ألقى بها الصليبيون اتفاقاً لدى عودتهم من الأرض المقدسة

وزاد إلى ذلك أن العظام الحفرية التي عثر بها بين باريس وإيتان، إنما هي بقايا هيكل عظمي اختزنها فيلسوف قديم في صومعته . وتتابعت من قلم فولتير الفصول تلو الفصول ، مستجيباً لمقتضى الضرورات التي فرض أن مذهبه اللاهوتي يحتاج إليها ، ومضى يكافح كل نتائج العلم الجيولوجي التي ذاعت في عصره .

ولكن أشد ما أصاب النصرانية من أضرار التحامل والحقد، قد أتى من طريق الإمعان في الجهد مبذولاً من تلك الناحية التى حاولت أن تظهر أن الحفريات إنما سببها طوفان نوح .

لم يقم في فكر المؤيدين للأهوت أن هنالك من فرض أو حيلة أو وسيلة هى من العُنْف بحيث تحملهم على تجنبها والاقلاع عنها — إذا هم رأوا أنها حيوية لتأييد نص الأناجيل . وباتخاذ ماجاء فيها من الاشارات العابرة والعبارات الغامضة على أنها الحق الثابت ، والاستمساك بأن ذلك الشعر المقدّس هو حقائق نثرية لامبدل لها ، وتفسيرها تفسيراً حرفيًّا صرفاً ، أقام أتباع "بارنت" و"وستون" و"وودوارد" رأياً كان له من العلاقة والأثر في علم الجيولوجيا ، نفس ما كان لكتاب "قوزماس" — الطُّبوغرافية النصرانية في علم الجغرافية . وعبثاً ضاعت كل الجهود التي بذلت في إقامة البراهين الجيولوجية والحيوانية والفلكية على أنه لم يقع من طوفان عام ، أو طوفان غمر جزءاً كبيراً من الأرض في خلال ستة آلاف العام المنصرمة ، أو في خلال ستين ألف سنة مضين . وسدى ذهب كلّ ما فعل الأسقف كلايتون وهو من مستنيرى أهل الكنيسة في سبيل القول بأن الطوفان لا يمكن أن يكون قد امتد لأكثر من البقعة التي عاش نوح فيها . وكذلك تبددت جهود غيرهم أمثال الأسقف كروفت والأسقف ستِلِّنجفليت وماتيو بول وهو من المنشقين ، في سبيل إثبات أن الطوفان ربما لم يكن عامًّا شاملاً

وجه الأرض كلّه . بل عبثاً ما أظهر الباحثون من أن الطوفان حتى لو كان عامًّا شاملاً ، فإن الحفريات لا يمكن أن تكون أثراً من آثاره ولا يمكن أن يكون السبب فيها .

لم يكن هنالك من جواب على هذه الحقائق إلا اللجوء إلى النصوص القدسية ، وأن كل الجبال الشوامخ التي هي على ظهر الأرض والتي هي تحت السماء قد غُمرت . ومن أجل أن يضفي على هذا البحث حصانة دينية أعلن وورتنجتون ، ومن على غراره من الرجال ، إن محاولة إقامة أي برهان على أن الحفريات ليست من مخلفات الحيوانات التي أغرقها طوفان نوح ، كفر ومروق من الدّين . ومضى الاعتقاد في انجلترا وفرنسا والمانيا قائماً على أنّ الحفريات إنما هي تركة خلّفها طوفان نوح ، بل ذاعت الفكرة في أن الاستمساك بهذا المعتقد ضروري للخلاص الأخروي .

ولكن العلم ظلّ يتقدم بخطى متزنة . لم يقفه من شيء ، لا قوة الكنيسة ، ولا الرسوم المحفورة البارعة التي زين بها « شوخزر » طبعة الأناجيل ، وبذلك أخذت الأسس التي تقوم عليها النظرية اللاهوتية تتداعى وتضمحل . على أن عملية الهدم كانت بطيئة ولا شبهة . لقد احتاجت عشرين ومئة سنة حتى يتسنى للحقائق كما بيّنها الله في الطبيعة أن يجلوها باحثون من طراز هوك ولينايوس وويشهرست ودوينتون وكوفييه ووليم سميث ، وأن يتسللوا بحقائقهم من وراء تلك الأخطاء المتراكمة والأغاليط المتراصة المتراكبة ، لينشروا رسالة النّور مجلوّة في عبارات احترزوا فيها كل الاحتراز حتى لا تستثار اللاهوتية الهوجاء ، وليتهيّأ لهم أن يبثوا ألغامهم في أصول تلك الأوهام . حتى اذا استهلّ القرن التاسع عشر ، كان العلم قد بلغ من القوّة مبلغاً لا يقاوم . وشقّ الطريق أفذاذ من العلماء مثل فون بوك وبلومنباخ وشولتيهم ، ولكن أثر كوفييه في الغارة كان طرازاً وحده . في

السنوات الأول في ذلك القرن أخذت بحوثه في الحفريات تلقي ضوءاً لامعاً على علم الجيولوجيا . ولا شك في أنه كانَ من غلاة المحافظين ، ممعناً في الحذر والكياسة ، بل انه كان عند قولة فولتير : « بين الذئاب يستحب الحذر بعض الشيء » . كان عصره عصر رجعية ، فقد هادن نابوليون الكنيسة ، والعبث بهذه الهدنة معناه الخيانة . ولقد استطاع كوفييه بما اصطنع في التصورات الغامضة الفضفاضة ، أن يرضي رجال اللاهوت ، في الوقت الذي بثّ فيه ألغامه القوية في أمنع قلاعهم . ولقد أدرك الخطر بعض المؤيدين للكنيسة . أدركوه بغريزتهم اللاهوتية ، وكان « شاتوبريان » رجلهم الطرازي . ففي كتابه ,, عبقرية النصرانية ،، وهو من الكتب العظمى في عصره ، التافهة في عصرنا ، عالج مشكلات الخلق ، معتمداً على المخادعة ، مستمداً من عبارة في ,, البدء ،، (١) دليلاً استند عليه في القول بأن الخلق لم يتم دفعة واحدة ، بل بظهورات كانت موجودة من قبل . ولكن الانتصار الحقيقي كان من نصيب ,, برونيار ،، الذي نشر كتابه في الحفريات النباتية سنة ١٩٢٠ ، فأقام به سداً لم يقوَ على اقتحامه أعداء العلم .

ومع هذا كله لم تنته المعركة ، بل تجدّد الأمل في كسبها ، إذ قام على قيادتها ,, غرانفيل بن ،، في انجلترا .

قامت نظريته على أساس القول بأن ,, كرة الأرض قد جرى عليها انقلابان : الأول : الخلق ، والثاني : الطوفان ، وكلاهما حدث بأمر الله وحكمه الذي لا يرد ،، ومضى يوقن بأن الخلق قد تم في ستة أيام من أيامنا العادية ، لكل منها ,, مساء وصباح ،، . واختتم بحثه بعبارات من تلك التي ألفها الناس ، بان أهاب بكوفييه وغيره من الجيولوجيين أن ,, ينتحوا المسالك القديمة ويسلكونها حتى يبسّطوا

---

(١) « في البدء خلق الله السموات والارض » سفر التكوين الاصحاح الاول :

مذاهبهم ويرجعوا عما قالوا به من حدوث انقلابات متوالية في سطح الأرض ، الى القول بانقلابين اثنين أو حادثين : أيام الخلق الستة ، وطوفان نوح . غير أن الجيولوجيين لم يستجيبوا لهذا الدعاء ، بل على العكس من ذلك أعلن رئيس الجمعية الجيولوجية البريطانية ، والأسقف " بكلاند " ، وهو جيولوجي نابه من رجال الكنيسة ، إنهما يعترفان بأن الحقائق قد أجبرتهما على أن يطرحا نظرية أن حفريات العصر الفحمي قد طمرت في طوفان نوح ، وان ينكرا أن الطوفان كان شاملاً .

شعر الحزب الأورثوذكسي خاصة بما في خروج " بكلاند " من أثر وقيمة. ولقد اتخذ من كفايته وأمانته وولائه لصناعته العلمية إذ كان راعياً لكنيسة " كِرَيْسِت " وأستاذاً لعلم الجيولوجيا في جامعة اكسفورد ، سلطاناً ومَدَداً استخدمهما كاملين في تهدئة زملائه من رجال الدين . ففي أول محاضرة له ، حاول بجهد أن يظهر أن الجيولوجيا تؤيد عبارات الخلق والطوفان كما يذكرهما سفر التكوين ، وفي سنة ١٨٢٣ ، وبعد أن أظهرت كشوفه في مختلف الكهوف بما لا سبيل الى رفضه أو إدحاضه قِدَمَ الأرض بل إمعانها في القدم ، كان لا يزال متشبثاً بنظرية الطوفان على ما جاء في كتابه " الآثار الطوفانية " Reliquiae Diluviae

على أن هذا لم يرض الحزب المعاند للعلم ارضاءً تامًّا . فاتخذت هجماتهم عليه صورة هي الى السخرية أكثر منها إلى البغض والمقت . والمثل على ذلك هجاءٌ كتبه " شاتيلْوُرْث " الذي صار فيما بعد أسقف «شيستر» مقلداً به الشاعر بوب في سفره الذي هاجم به « نيوتن » : وقد جرى هذا الهجاء على النمط الآتي :

( ذات مرة قامت بعض الشكوك عن الطوفان ، فلما تصدّى لها « بكلاند » صفى الأمر صفاء الطّين ) .

"Some doubts were once expressed about the Flood :
Buckland arose, and all was clear as mud".

عندما غادر ,, بكلاند ،، جامعة أوكسفورد في رحلة الى جنوبي أوربا، سُمع الأسقف ,,جيسفورد،، يقول متنفساً الصعداء : ,, حسن . لقد ذهب بكلاند الى إيطاليا، فحمداً لله إذ سوف لا يأتينا مزيد من هذه الجيولوجيا ،،.

ظلت العاصفة على هدوئها النسبي ونزل بعض الاطمئنان بالقلوب ما ظلَّ ,, بكلاند ،، مؤيداً ,, للنظرية الطوفانية ،، . ولكن عند ما ألقى سلاحه وسلَّم، استعر أوار المعركة، وتبدَّلت الأهاجي والصور الاستهزائية، بهجمات عنيفة مريرة، وانهال عليه من المنابر والصحف سيل من الإهانة والقذف . أما أقذع القذف فقد انصبَّ على سير ,, شارلز ليل ،، . وقد رأينا أنه نشر كتابه مبادىء الجيولوجيا في سنة ١٨٣٠ . وما من كتاب كان أمعن من هذا الكتاب حذراً وتلطفاً . جمع فيه مؤلفه جملة المستكشفات التي وصل إليها الباحثون لعهده، واستخلص منها الاستنباطات الضرورية بأبين سبيل وأثبت منطق . ولذا يعتبر الى الآن من الكتب التي يفخر بها العالم الأنجلوسكسوني — ذلك بأنه أحد الشواخص البينة في طريق الفكر الانساني .

ولكن النزعة في هذا الكتاب كانت بالضرورة مخالفة لتلك الاساطير الكلدانية وغيرها من الخرافات التي راجت عن الخلق والطوفان وانتحلها العبرانيون بعد أن نقلوها عن مدنيات جاورتهم وكانت أقدم من مدنيتهم، ثم أدمجوها في الكتب المقدسة التى رموا بها الدنيا الحديثة . فكان نصيبه الرفض البات القاطع .

استمسك اللاهوتيون ورجال العلم الذين نهجوا نهجهم بأن الاقلال من شأن التغايرات الجيولوجية واعتماد ,, ليل ،، على الفعل التدرجي الصادر عن علل طبيعية لا تزال تعمل الى الآن، قد هدَّد النصوص القدسية في الخلق . ولم يترك مجالاً

لتدخل المعجزات . ولما رأوا أنه قد قضى على فكرتهم الأثيرة في الانقلابات الجيولوجية العظمى التي انتابت سطح الأرض ، وفي الحفريات العديدة وانها أثر من طوفان نوح ، وإنه أظهر أن الخلق يحتاج الى زمان أطول بكثير من ذلك الزمان الذي يمكن استنتاجه من تاريخات العهد القديم وأنسابه ، انفجر غضب الأورثوذكسية انفجاراً ذريعاً مخيفاً . فهاجمه زعماء الكنيسة الكبار بلا رحمة . وقد ظلَّ زماناً في مجال ” النبذ الاجتماعي “ لأن الكنيسة لم يكن في يدها إذ ذاك أن تفعل به أكثر من هذا .

* * *

ولما لم يُجدِ هذا غير قليل ، اتخذ جانب العلم وسيلة الى تحطيمه ، وأُغرِي به ” كوفييه “ بسلطانه وعنفوانه . ولكنَّه ظهر غير بعيد أن هذه الوسيلة لا غناء فيها ، لأن المفكرين لم يصغوا ” لكوفييه “ وأصغوا الى ” ليل “ . أما كتاب ” كوفييه “ الذي سماه ” نظرية في تكوين الأرض “ وهو من كتب الأرثوذكسية المعروفة ، ففقد قيمته في اعتبار رجال العلم ، فلم يطبع طبعة ثانية . في حين أن كتاب ليل قد طبع اثنتى عشرة طبعة متوالية . وظلَّ أساساً ركيزاً من أسس الفكر الحديث .

ممن وصفوا بالاعتدال من معادي « كوفييه » العالم « فيرهولم » صاحب كتاب « الطوفان الموسوي » الذي ظهر في سنة ١٨٣٧ . وقد ذهب الى أنه من المتعذر أن يكون قد نزل بالأرض أمثال تلك التقلصات المبكرة التي يفرض الجيولوجيون وقوعها ، لأنه من المستحيل أن يقع طوفان ” قبل أن تحدث تلك الجريمة الأدبية “ أي قبل خلق الانسان . ولقد عبَّر بجمل مثيرة عن أسفه على ما وقع فيه رئيس الجمعية الجيولوجية والأسقف ” بكلاند “ من القصور وقلة

التبصر ، معارضاً أولئك الجيولوجيين الذين ،، يمضون وأعينهم مغمضة عما أوحى به الله بكل وضوح وبيان ،، .

ومع هذا مضى الجيولوجيون ينقبون عن الحق . فإن الجرثومة التي غرسها ،، وليم سميث ،، خاصة ، قد نشّأها وربّبها منظومة كريمة من الباحثين الذين حققوا للعلم نصراً مبيناً . ذلك في حين أن أولئك اللاهوتيين الذين شعروا بأن انتباذ العلم على أنه كفران وإلحاد لا يجدي غير قليل ، راحوا يتبعون طرائق جديدة توفق بين حقائق الجيولوجيا وسفر التكوين . ولقد أظهر بعضهم فراهةً بيّنة . ولكن سلطاناً دينيًّا مجتاحاً ، كان يخمد جذوتهم ويحط من عزمهم بأن يدمغهم حيناً بعد حين بأنهم متطرفون خياليون . على أن هذه المحاولات قد اختلفت وتباينت من حيث المنزلة والقيمة . ولكن الحقيقة التي صبغتها جميعاً كانت مزيجاً من العلم قلّ أم كثر ، بمقدسات تزيد أم تنقص ، فتخرج منها نتائج هي الى البعد عن العقل بمقادير متفاوتة . وبالرغم من أن قليلاً من الرجال قد عكفوا على هذه الطريقة متفرقين فان التسليم وإلقاء السلاح من جانب ذلك الحزب الذي نابذ حقائق الجيولوجيا بأسطورة طوفان نوح، كاد يكون تامًّا .

من الشواهد الأولى على أن هذا التسليم كان كاملاً ، ما رواه الجيولوجي ، المعروف دكتور ،، و . ب . كاربنتر ،، . ويحسن بنا أن ننقل هنا كلماته بنصها قال :—

،، إنك لتعرف كتاباً ذا قيمة كبيرة هو كتاب دكتور ،، سميث ،، المسمى ،، معجم الانجيل ،، . وإني لأعرف الملابسات التي أحاطت بترتيب هذا المعجم فإن فكرة الناشر والمشرف عليه قد اتجهت الى أن يتضمن المعجم من بحوث النقد الحديث ونتائجه ما يطابق روح المحافظة مطابقة شريفة معتدلة . وتمّ لهم الرأي

على أن لا يعارضا علم الجيولوجيا ، ولكن القول بشمول الطوفان كان من المبادىء التي تشددا في الاستمساك بها . فعهد المشرف بالمقال الخاص بالطوفان لعالم ثقة عظيم الكفاية ، فلما وصله المقال ألفى أنه ممعن في الهرطقة مغال من التحرر من القديم ، فلم يقو على وضعه في المعجم . ولم يتسع الوقت لكتابة مقال آخر لهذه المادة ، حتى أنك اذا تصفحت هذا المعجم وجدت أن مادة "الطوفان" قد أحالت على مادة فيضان (١) . وقبل أن يصل ترتيب المعجم الى مادة "فيضان" طلب المشرف مقالاً آخر من مصدر ظُنَّ أنه من المحافظين الذين ينشدون سلامة الدين . فلما وصله المقال وجد أنه أنكى من الأول وأقذع ، فكتب مقال ثالث اتخذت فيه كل الحيطة ليكون أمين المتجه سليم المغبة . فاذا نظرت في كلمة "فيضان" (٢) وجدت أن الكاتب أحالها على مادة "نوح" حيث كتب مقال عهد به الى استاذ ممتاز من أساتذة جامعة « كمبردج » ، أتذكر أن الأسقف "كولنسو" ذكره مرة لي فقال : إن كاتبه قد حاذر محاذرة تامة في تحريره حتى أنه أهمل الكلام في هذا الأمر اهمالاً تاماً . ومن هنا ترى تحت أية صورة من صور الكبت وقعت الفكرة العلمية وأي جهد بذلت في هذه الناحية من البحث" .

شهد تاريخ هذا الصراع تسليماً آخر شبيهاً بهذا ، فإن "هورن" أصدر طبعة جديدة من كتابه "مقدمة الأناجيل" وقد اعتبر كتاب الأرثوذكسية المثالي ، فأسقط منه بغير جلبة ولا ضوضاء فكرة اتخاذ الحفريات برهاناً على شمولية الطوفان .

---

(١) كلمة طوفان Deluge تأتي في الترتيب المعجمي قبل كلمة فيضان Flood فأحال المعجم عليها .

(٢) وكلمة فيضان Flood تأتي قبل كلمة نوح Noah فكأن المشرف على هذا المعجم قد أحال « طوفان » على « فيضان » فلما لم يفز بمقال يطابق وجهة اللاهوت أحال « فيضان » على نوح ، ثم لم يكتب في هذه المادة شيء يفي بحاجة العلم .

كذلك وقع في أمريكا ما يشبه ذلك سنة ١٨٤١ . فان أستاذاً من نابهي الباحثين في التفسيرات والآداب الانجيلية في كلية الكنيسة البروتستانية الأسقفية ، هو دكتور „ صموئيل ترنر ‟ قد استجاب للحق فاعترف به مثبتاً بذلك أنه جدير بإيمانه النصراني وشجاعته الأدبية . ولقد نبذ ذلك النزاع القديم واطرحه جماعة عظيمة من الجماعات النصرانية ، عند ما قام بعيد ذلك رجلان جليلان من رجال الدين اتصفا بالتقوى والعلم الواسع ، تابعان للكنيسة النظامية الأسقفية ، فأدمجا في „ الموسوعة الانجيلية ‟ التي طبعت باشرافهما ، ملخصاً كاملاً للبراهين الجيولوجية والفلكية والحيوانية المثبتة أن طوفان نوح لم يكن شاملاً وإنه لم يشمل رقعة واسعة من سطح الأرض ، فلم يعترض على هذا العمل رجل واحد في أي فرع من فروع الكنيسة الأمريكية

كانت سنة ١٨٦٢ هي الحد الفاصل بين النزعة القديمة وبين الأخذ بالأساليب الحديثة من جانب رجال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، عند ما نبذ « روش » أستاذ اللاهوت في جامعة « بون » في كتابه « الانجيل والطبيعة » النظرية الطوفانية القديمة ، وأنحى على مؤيديها بقارص النقد ، وأثبت النتائج التي أقرها العلم .

ولكن على الرغم من أن النظرية المقدسة التي اتخذت من طوفان نوح وسيلة تدفع بها الصعوبات التي أقامها العلم كانت قد أخذت في الاحتضار ، فان نواحي من الفكر قد مضت أمينة عليها مخلصة لها مستمسكة بها .

ففي بلدان الكتلة الرومانية احتضنت النظرية القديمة وبشر بها في المطبوعات ومن فوق المنابر ومن كراسي أساتذة اللاهوت . ولقد دلّ البابا « بيوس التاسع » على حدبه عليها عند ما منع المؤتمر العلمي الايطالي من الاجتماع في مدينة بولونيا سنة ١٨٥٠ .

وفي سنة ١٨٥٦ هنّأ الأب ” دوبرين “ لاهوتيي فرنسا على موقفهم الرائع قال : ” إنهم بغريزتهم لا يزالون يستمسكون باستمداد الفكرة في الحفريات من طوفان نوح “. وفي سنة ١٨٧٥ نشر الأب ”شوايّيه “ في باريس وفي ” أنجير “ متناً رحب به رجال الكنيسة أعظم ترحيب وأجازوه بصدق عقيدة ، وقد نحى فيه مثل ذلك المنحى . وفي سنة ١٨٧٧ نشر الأب اليسوعي ” بوسيزيو “ Bosizio في ” ماينس “ مقالاً عنوانه ”الجيولوجيا والطوفان“ ، فجهد أن يرد الدنيا الى الوراء بأن يحمل الناس على الاعتقاد في الحل القديم لتلك المشكلة العلمية ، جانحاً الى القول طبعاً الى أن أيام الخلق إنما هي أحقاب متطاولة ، ولكنه كفّر عن إجازة هذا القول بعبارات السخرية التي رمى بها ” دروين “ .

وفي سنة ١٨٦٩ قال «مكاريوس» رئيس أساقفة الكنيسة الروسية الرومية في لتوانيا بضرورة الاعتقاد في أمرين : هما الخلق في ستة أيام عادية وفي طوفان نوح ، وانهما السبب في كل الأشياء التي يحاول علم الجيولوجيا تبيانها . وبعد ذلك بسنين أي في سنة ١٨٧٦ قام لاهوتي نابه من نفس الكنيسة وذهب لأبعد مما ذهب صاحبه ، فأنكر على المؤمنين أن يعتقدوا بحدوث أي تغيير منذ ذلك « البدء » الذي ذكره سفر التكوين ، عندما نضدت طبقات الأرض وخُططت ثم صُدّعت ، ورصّعتها يد الله بالحفريات في خلال ستة أيام عادية .

في الفرع اللوثري من الكنيسة البروتستانية تجاوبت الأصداء بمثل هذا المعتقد . فان « كايل » أستاذ جامعة « دوربات » الذي نبه ذكره في التفسيرات الانجيلية ، ألف مقالة نشرها في سنة ١٨٦٠ حكم فيها بأنّ علم الجيولوجيا قد ارتدّ عقيماً ، وأن تعليلاته قد سقطت بحكم حقيقتين كبريين : الأولى — اللعنة التي طردت آدم وحوّاء من الجنة ، والثانية ـ الطوفان الذي قضى على جميع الأحياء ماعدا نوحاً وأسرته

والحيوانات التي حملها في الفلك . وفي سنة ١٨٦٧ تقدم « فيلبي » وتبعه « ديتريش » في سنة ١٨٦٩ ، وكلاهما لاهوتي ذائع الصيت ، فانتحيا ذلك المنحى واتجها ذلك المتجه في المانيا ، وحاول ثانيهما أن يضرب العلم والعلماء ضربة تردهما الى حظيرة الدين ، فقال عبارته المشهورة : إن من حق علم الجيولوجيا أن ينظر فيما هو كائن ، لا في مناشيء الأشياء . وهي عبارة رنانة ولكنها خاوية كالقصبة الجوفاء .

وحتى سنة ١٨٧٦ كان „زوجلر“ من مؤيدي هذا المتجه ، واجتمع عليه لفيف من اللاهوتيين أقل منه شأناً ، وأخذوا يبشرون به للناس من فوق المنابر وفي الصحف لعلهم يقسرون الفكر على الأخذ بما يضاد العلم ، فلم يكن لعملهم هذا من نتيجة اللهمّ إلاّ ان تزداد الشكوك التي تساور المفكرين في النصرانية ، وبخاصة بين ناشئة الشباب الذين فقدوا كل ثقة في قضية هذه براهينها وعُدَدُها .

ذلك بأنه في حوالي ذلك العهد أُصيب المتجه التقليدي في الطوفان بضربة قاتلة ، وبطريقة لم تكن متوقعة . فان بحوث « جورج سميث » في الألواح الأشورية المحفوظة في المتحف البريطاني حوالي سنة ١٨٧٢ ، ومن بعد ذلك في بلاد أشور نفسها ، قد كشفت بما لا يترك مجالاً لشك أو ريب ، أن كثيراً من الأقاصيص التي يتضمنها سفر التكوين ، إنما هي في أصلها أساطير وخرافات كلدانية قديمة تكيفت وحلّ بها بعض التغيير .

ولم يقم البرهان على ذلك فيما يختص بأقاصيص الخلق وهبوط الانسان ، بل قام أيضاً على الطوفان بصورة واضحة قاطعة . أما اللوحان الحادي عشر والثاني عشر وهما اللذان يتضمنان أهم هذه النقوش ، فقد ظلاً سليمين تقريباً ، وهما يقصّان أساطير سجلت في الحجر خلال زمان أوغل بكثير من عصر موسى قدماً ، وتتناول فيما تتناوله أشياء جديرة بدنيا الانسان اذ كان في طفولته ، فتذكر بناء الفلك

للفكاك من الطوفان ، والعناية بتدريز خشبه ونجاة انسان تحبه السماء ، واختياره وأخذه في السفين من كل ضروب الحيوان زوجين اثنين ، ثم قفل باب الفلك وارسال أفراد من الطير عندما أخذ الطوفان يتناقص ، وتقديم القرابين والأضحيات عند ما غاض الماء ، وفرح « الموجود القدسي » الذي صنع الطوفان عند ما استنشم ريح القربان بمنخريه . ذلك في حين أنه في خلال هذه الأسطورة قد أضفى على العدد « سبعة » وهو العدد الكلداني المقدس من الهيبة والاحترام ، ما تقع على مثله في أساطير سفر التكوين وفي الكتب العبرانية المقدسة جميعاً .

تبع ذلك ظهور باحثين تفانوا في البحث واستماتوا في سبيل العلم من أمثال „سايس،، في انجلترا و «لينورما» في فرنسا و « شرادار» في المانيا ، واتبعوا جميعاً نفس الطريق الذي سار فيه « جورج سميث » فكانت نتيجة بحوثهم أن نبذت الأسطورة العبرانية في الطوفان ، تلك الأسطورة التي عمل اللاهوتيون خلال أزمان متلاحقة على أن يلزموا البحوث الجيولوجية إقرارها ، حتى لقد رفضها في تؤدة وهدوء خواص علماء النصرانية ، وأضافوها الى عالم الخرافة ودنيا الأسطورة .

قامت محاولات متفرقة لتبدّد من قوة هذا الكشف العظيم ، ولقد اتضح أن الخوف من ذيوعه ونشره في الناس ، قد أثّر تأثيراً حقيقياً في سلطان رجال الدين النصراني وحدّ من عنفوانه .

ومع كل هذا فان انتحال الأساطير الكلدانية وبثها في تضاعيف المقدسات العبرانية ، هو أحد البراهين الدامغة على قيمة الأناجيل النصرانية من حيث دلالته على نزعة تقدمية نشأت في الانسان . فإن الأسطورة الكلدانية تعزو حدوث الطوفان أول شيء الى الشهوة المطلقة لإله بعينه من بين عديد من الآلهة هو ( بعل ) . أما القصة العبرانية فعبارة عن تكييف لهذه الأسطورة عزى به الطوفان

الى العدل الصمداني والبِرِّ الرباني الصادرين عن إله واحد . وهذا يظهرنا بصورة قاطعة على درجة من التطور أرقى طبيعة وأنبل عاطفة ، إذ هي تتلمس سبباً أدبيًا لتبرير مثل هذه الكارثة العظمى .

ومما يبعث على أشد الأسف أنه حتى بعد أن بلغ العلم هذا المبلغ ، فإن سياسة انكار مثل هذه الموحيات العلمية الجديدة كانت عامة على وجه التقريب ، اللهمَّ ، إلاَّ إذا استثنينا فئة قليلة من ذوي العقول الفذَّة من رجال الدين ، أما السبب في جمود هذه النزعة في بلدان الكثلكة الرومانية وبلدان البروتستانية على السواء ، فلا يعوزنا العثور عليه الى كثير من الجهد . ولا حاجة لنا هنا بأن نمضي في التعريف بالحالة التي كان عليها فكر الأوساط من الناس في فرنسا وإيطاليا . أما في المانيا ، فعلينا أن نذكر حقيقة مثالية هي أنه في سنة ١٨٨١ لم يكن في كنائس برلين من الوسائل إلاَّ ما يتسع لاثنين في المئة من مجموع سكان المدينة ، بل كانت هذه الوسائل أكثر من الحاجة . لا تدل هذه الحقيقة بطبيعة الحال على اضمحلال الروح الديني عند الشماليين من أهل المانيا ، فإن المعروف أنهم شديدو التدين والروح الديني على أشده بينهم . ولكن السبب في ذلك راجع في الأكثر الى أن حقائق العلم البسيطة تسرَّبت الى نفوس الناس وتشرَّبتها عقولهم ، في حين أن الحزب الغالب في الكنيسة اللوثرية قد ظلَّ يرفض هذه الحقائق ، ومضى يفرض على الناس ضرورة التفسير الحرفي للنصوص المقدسة ، ويلزمهم إلزاماً عقيديًا بها . وتلك نزعة كان العقل الألماني قد شبَّ عن طوقها وأفلت من أصفادها . ولا شك في أن ذلك سوف يكون نصيب كل جماعة ينتحي فيها رجال الدين هذا المنحى ويتبعون مثل هذا الأسلوب . ولا مشاحة في أن هذا يحز في قلب كل مفكر مهما كانت نزعته الدينية . وأن هيئة دينية مستنيرة مفكرة تقية ، هي في كل مكان وحينما تكون ، نعمة ورحمة .

اسماعيل مظهر

# جذوة

كلما أمعن أمسي في البعادِ     لم يَشُقْني ذخرُ يومي وغدي
أينمِ الحاضرُ لكنَّ فؤادي     زاهدٌ في الصبوات الجُدُدِ
ناكصٌ إثرَ هوى غيرِ معادِ     كلفاً بالمدبِرِ المبتعدِ
يا له عهد جموحٍ وتَجَنٍّ ! !

يا لها ساعة غيٍّ وانطلاقِ     من حدودٍ خطها لي رَشَدي !
إذ تلاقَينا فأغراني التلاقي     وتهافتُّ على الثغر الندِي
وجنيت الشهد من حلو المذاقِ     واشتفى .. لو يشتفي ثغري الصدِي !
يوم أدركت المُنى بعد التمني

يوم أن أغراني الشوقُ المُطيفْ     بجنى حسنك فامتدَّتْ يدي
تتحرَّى ما طوى البُرْدُ الطريفْ     من خفايا حسنك المنفردِ
فتلظَّت جذوة الوجدِ العنيفْ     في كياني القلِقِ المرتعدِ
أغرُبي يا ذِكَرَ الغابرِ عني

لاحقتني صورٌ لا تضمحلّْ     للقاءٍ أزليٍّ سرمدي
يومَ أن وَرَّدَ خدَّيك الخجلْ     فسترتَ الوجهَ عني باليدِ
واستوى قدُّكِ يعنو للقُبَلْ     مستقرًّا ... يا له من مشهدِ !
خِلْتُه آية فنٍّ ، أي فنٍّ !

ضاقَ ذرعي بشفوفٍ وحُلَلْ     حجبتْ سحرَ الجمال المرتدي
فانثنتْ كفِّي الى تلك الكِلَل     ونَضَتْها عن قطوف الجسدِ
فتجلَّت آية تعشي المُقَلْ     بهرتْ لُبِّي وشفَّتْ كبدي
يقتفيني طيفها بالرغم مني

كلما عادت بيَ الذكرى الى     ذلك الماضي تداعى جَلَدي
عهد حب مرَّ إلا أملا     واصلاً ما بين أمسي وغدي
ليت ما بينهما انبتَّ فلا     يزدهيني ممعنٌ في البُعُدِ
أيها النسيان أجمِلْ وأعِنّي !

محمد مفيد الشوباشي

# نظرات في النفس والحياة

## — ١٥ —

## تكملة نظرات جورج أليوت سويفت

(١) بين النساء من يدفعها طبعها الى الحماقة حيناً بعد حين وتستنفد جهد شراستها في وقت قليل ولا تستعيده إلاَّ بعد مدة من الزمن فيستريح أهلها . ولكن بين النساء من تعد من أهل الخير والتضحية ومحبة ذويها وهي لا ترفع صوتها في شراسة، ولكنها لا تفتأ طول يومها تنكد حياتهم بصوت منخفض باللوم والشكوى والتأنيب والمخالفة وبتذكيرهم أحزان أمس وما قد يُتَوَقَّع من أحزان غدهم، وتبكي إذا سمعت خبراً ساراً، كما تبكي اذا سمعت خبراً محزناً، فهي دائماً بين بكاء السرور وبكاء الحزن . وهذان الصنفان مشاهدان في الرجال أيضاً، وإن كان البكاء أغلب على النساء فأي الصنفين أثقل على القلب ؟ . المشاهد ان الناس يفضلون الصنف الأول مهما كانت شراسته لأنه يعطي معاشريه فترات راحة . ومن أجل ذلك قد يمدح معاشر الرجل الشرس هذا الشرس فيقول ( قلبه طيب — أو قلبه أبيض ) وربما كان السبب ان صاحب الوقاحة والشراسة اذا هدأت حدَّة طبعه شعر باعتدائه على الناس بهما، فيلين ويلطف، وملاطفته لشدة اختلافها عن شراسته ولأنها غير متوقعة تكون ذا أثر أعظم في النفس ممَّنْ ملاطفته الناس أمر معتاد مألوف . أما الملاطفة الممنوعة النادرة فهي تفاجىء النفس مفاجأة سارَّة كما قال الشاعر ( أحب شيء الى الانسان ما مُنِعا) . أما الرجل والمرأة من الصنف الثاني فإنهما لدأبهما على الشكوى والتململ واللوم والتذكير بالأحزان يكادان يبلغان بأهلهما الى درجة الجنون . وأشد من هذين الصنفين الرجل والمرأة اللذان يجمعان صفات الصنفين : شراسة متقطعة وتململاً دائماً .

(٢) للطبيعة لغة وهي لغة صدق لا تكذب، ولكننا لا نعرف قواعدها فنخطىء اذا حاولنا معرفة معناها ، ونحسب أن العين الفاترة الفاتنة الساحرة ذات الأهداب الجميلة

الطويلة دليل على الصدق والأمانة ، ولكن صاحبتها قد تكون ورثت عينيها عن جدتها ، وورثت أخلاقها وطباعها عن مصدر وراثي آخر ، فتجمع بين العين الفاترة التي تدعو الى الاطمئنان ، وبين الغش والمكر والخداع والشر . وهذه الفكرة أصدق من قول الفيلسوف الألماني نيتشه في وصف سقراط الحكيم الاغريقي القديم الذي كان ذا وجه شنيع وكان مشهوراً بالحكمة والعفة والفهم والأمانة والصدق . ولكن نيتشه الفيلسوف الألماني يقول: إن من نظر الى صورة سقراط يستطيع أن يستدل منها على انه كان مجرماً بطبعه . وهذه مبالغة لا مُسَوِّغ لها فإن خواطر الاجرام تتردد في كل نفس كما قال فرويد . وقد يكون المجرم شنيع الوجه وقد لايكون . فقد رأيت في كتاب عن المجرمين صوراً كثيرة لبعضهم جمعت بين الجمال والسماحة والطلاقة ؛ فالقبح أو الجمال ليس دليلاً قاطعاً على الصفات النفسية الغالبة .

( ٣ ) الصانع الماهر الذي يحفزه ضميره الطاهر يحجم عن صنع آلة غير محكمة الصنع لأنها قد تضر من يقربها أو يستعملها ولا يعرف الصانع مقدار الأضرار المتتابعة التي تسببها سبباً عن سبب . وكذلك كل انسان ينبغي أن يتذكر ان عمله قد يكون له نتائج بعيدة غير منظورة . وكذلك أقوال المرء يصدق فيها ما يصدق في أعماله وربما استحال عليه أن يتحاشى كل عواقب أعماله وأقواله كما أوضح أناتول فرانس فيما اقتُبِس من نظراته . ولكن استحالة معرفة نتائج الأعمال والأقوال ( أي النتائج والعواقب المتتابعة القصيّات ) لا تمنع من محاولة التبصر قبل القول والعمل — ولا أظن أن مفكراً في العصور الحديثة كانت لآرائه عواقب ونتائج ومذاهب غير منظورة كما كانت لآراء جان جاك روسو — ولقد قال هنري فردريك أمْييل : كل المذاهب الحديثة المختلفة في نواحي الحياة يمكن ارجاعها الى روسو . ومن الغريب أن روسو كان حييًّا يحب العزلة وينفر من الاجتماع بالناس . ويسيء بهم الظن . وكان يخشى وينفر من الثورة التي كان يتوقعها ويحاول منعها بالاصلاح . وكان يقدس حريات الفرد الى أقصى حد كما في رسالته ( أسباب تفاوت الناس ) ومع ذلك فقد تشعبت مذاهب وعواقب افكاره ومذاهب معتنقيها أيام الثورة الفرنسية وهو في كتاب ( العقد الاجتماعي ) يذكر

آراء يستطاع بها تقييد حريات الفرد الى حدّ كبير، وهذا التناقض أيضاً ظاهر في كتابه المسمى (إميل) في التربية فهو يريد من المربي ان يترك تلميذه حرّاً يستنتج عواقب ونتائج أعماله بنفسه. ومع ذلك فالمربي الذي وصفه وأراده كان أحياناً يتجسس على تلميذه ويهيء له النتائج التي يريدها — ومن أجل ما وصفت من الفرق بين طبع روسو وبين آرائه يخيل لي أنه لو كان عائشاً في باريس أيام حكم الارهاب لسيق الى الجيلوتين وأعدم لتخلف رجل الفكر عن رجل العمل وذلك بالرغم من أن حُكّام الارهاب كانوا قد اعتنقوا مبادئه. وبالعكس قد يصاب صاحب الفكرة الجديدة أو المبدأ أو الشريعة لتخلف الناس عنه. وأذكر قصة أظن أنها لدستويفسكي القصصي الروسي وبها يتخيل أن سيدنا عيسى عليه السلام قد بُعث مرة ثانية في أوربا ودعا الناس الى الأخوة والتعاون والسلم والمحبة فخشي بعض الحكام دعوته وضاقوا به ذرعاً وحاولوا أن يصلبوه مع انهم على دينه.

(٤) إن أعظم حوادث حياتنا تأتي وتروح كما يأتي الليل والنهار والنوم واليقظة والمطر والصحو والحصاد. ولا نستطيع تعيين أوقاتها لها كما نشاء. وربما جاهدنا وعملنا، ولكن جهدنا وعملنا قليلا الأثر اذا قيسا بضرورة المقادير التي تعمل عملها وتحدث نتائجها بالرغم منا ومستقلة عن عملنا — ولعلّ هذا من أسباب ما لوحظ في نظرة في المقال السابق من شدة اعتماد الناس على ما قد يأتي عفواً وهو غير مضمون الحدوث. ولو أن من أسباب هذا الاعتماد أيضاً ميل النفس الى تصديق احتمال حدوث ما تود أن يحدث حتى تكاد من شدة هذا الميل تراه حقيقة واقعة. وكذلك تميل النفس الى تصديق ما تود أن يكون من أحوال غيرها من الناس. ومن صفاتهم إن خيراً وإن شرّاً وحمداً أو ذمّاً. وكما ان النفس تميل الى تصديق ما تود أن يكون حقيقة فهي وان كرهت حدوث ما تخشى حدوثه اذا تملك الخوف والذعر حتى يصير الذعر مرضاً تميل الى تصديق حدوث ما تخشى حدوثه حتى كأنه حقيقة واقعة. ولعلّ بعض الأمراض من هذا النوع من الوهم الذي سببه الخوف. وهذا الميل النفسي الى تصديق ما تود النفس أن يكون كأنه حقيقة كائنة هو مسألة سيكولوجية ثابتة. وكذلك التأثر بالذعر حتى تعتقد مسببه حقيقة كائنة. وأغرب من هذا وذاك ان الانسان قد يصاب بأمراض لا من الذعر، ولكن لأنه يود أن يصاب بها، فيميل الى تصديق

ما يود أن يصاب به حتى يصاب ، وانما يود ذلك إما لينال التدليل والاعزاز والعناية والعطف كما هو نصيب المريض . واما تشفياً وانتقاماً ممن وُكِل اليهم أمره كي يكلفهم عناء في رعايته أثناء مرضه . واما لأنه يشعر في ضميره أنه أراد السوء لمن لم يصبه بضرر فيدفعه ضميره الى تصديق وقوع السوء بنفسه فيصاب . وكل هذه الأمور تذكرنا قول جويتى الأديب الألماني اذ قال : كما أن روما القديمة كان بها فضلاً عن سكانها من الأحياء ، سكان من التماثيل العديدة المنصوبة في كل مكان . كذلك هذه الحياة الدنيا يوجد فيها دنيا من الأوهام وعَالَمَ من الخيالات وهي أعظم أثراً وأتم قدرة في نفوس الناس وحياتهم وأكثر الناس يعيش في هذه الدنيا الثانية

(٥) لا بدَّ أن يكون في نفوس الناس شيء من كذب السريرة مهما تخلقوا بالعدل والصدق ، فان أفضل رجل اذا حادث انساناً لا يود ان يؤلمه يضطر في محادثته له ان يميل قليلاً الى رأيه ملاطفةً له ، أو لعله غير قادر على التعبير عما في نفسه ، أو لعله لا رأي له في موضوع الحديث فيجتبي رأي غيره يسد به فراغاً في نفسه . وكل هذه الأحوال كأمواج في بحر الأنسانية ، ولابدَّ أن يسير المرء بسفينته بينها . فمن الحكمة أن لانحقد على الناس من أجل ذلك ، وأن لانيأس من النفس الإنسانية إذا انقادت بعض الانقياد ودلَّ انقيادها على كذب السريرة

(٦) اذا كانت آلام كفاحنا في الحياة لا تخلف إلاَّ نفوسنا كما كانت قبلها مع ما فيها من تحيُّز للباطل ومن أثرة وقلة مبالاة عظائم الأمور ، فاننا نكون قد تألمنا في هذا الكفاح ولم نربح فضائل أو صفات سامية . ولكن هذا الألم قد يتحوَّل الى عطف به نكون أكثر قدرة على فهم الأمور كما تتحوَّل القوَّة الى قوة أخرى في علم الطبيعة .

(٧) خليقٌ بالمرء قبل أن يحاول فهم الكون كله — وييأس اذا لم يستطع فهمه — أن يحاول فهم ما حوله من الحياة أولاً لأن الزمن كالمال إنما يقاس بمقدار حاجتنا إليه . وهذه الكلمة أوسع نطاقاً من قول الفيلسوف الأغريقي القديم ( اعرف نفسك ) وقد فسَّر جويتى هذه الكلمة بقوله إن الانسان لايستطيع أن يعرف نفسه بالتأمل الفكري وحده ، بل لا بدَّ أن يكون التأمل في النفس مقروناً الى العمل وأداء الواجب ، وفي أداء الواجب

اليومي يستطيع المرء أن يختبر نفسه وأن يعرفها بالتأمل وقد أعجب كارليل برأي جويتى وأعاد ذكره بإصراراً .

(٨) إننا كثيراً ما نعتز بماضي حياتنا حتى ولو تغيرت أفكارنا وتبدَّل شعورنا، وصرنا انساناً آخر بهذا التغير. ولذلك قلما نرضى عن نقد ذلك الانسان الأول الذي كنّاه في الماضي بل نتلمس له ما يزكيه كراهة لتخطئة أنفسنا القديمة كل التخطئة، وذلك لأنها بالرغم من كل شيء أساس أنفسنا الحديثة .

(٩) قلما تستطيع الأقدار أن تنتقم منا بسلاح من أنفسنا تتخذه ضدنا من تألمنا لما سببنا لغيرنا من الآلام، إلاَّ إذا وصف الناس عملنا في إيلام غيرنا بأوصاف شنيعة، أو إذا خشينا ذلك ، فعندئذٍ يتيقظ ضميرنا ويتيقظ احساسنا الخلقي ويؤنبنا ، وربما كان لا يؤنبنا لولا لوم الناس وتأنيبهم .

(١٠) كثيرٌ من عيوب الناس وغرائب طباعهم سببها أحزان وأحاسيس وحوادث مثَّلَت بالنفس تمثيلاً ، والحياة التافهة غير الثابتة أو الحياة الضالة التي يحياها إنسان والتي نلوم صاحبها عليها قد تكون كحركة الرجل الذي فقد بعض أعضائه وقد تكون نفسه كجزع الشجرة التي قطعت غصونها وأوراقها — وهذا قول مبكر فيما يسميه علماء النفس في هذا العصر العُقَد النفسية .

(١١) إننا نستطيع أن نحس روح الله في كل أمر . ففي الأعمال والمخترعات الكبيرة أو في أعمال الصناعات الصغيرة نستطيع أن نرضي الله بأعمال أيدينا كما نرضيه بأعمال نفوسنا ، وأن نعمل الخير ونتقرَّب الى الله بالأعمال المنزلية والزراعية ، كما نرضيه ونتقرَّب إليه بالصلاة لأن كل عمل يؤدَّى بصدق وأمانة إنما هو تقرُّب الى الله

(١٢) ولكن بعض الناس إذا أدّوا الصلاة يوم الأحد في الكنيسة حسبوا أنهم أدّوا كل واجبهم نحو الله فتستريح ضمائرهم وتجيز لهم أموراً كثيرة ويعدون الحياة منصباً مربحاً . أومتجراً مكسباً بدل أن يعدوها واجباً يقتضي الجهد والتضحية والعمل

(١٣) إن قول شكسبير في قصة ماكبيث إن الإنسان لا يستطيع أن يكون في أمور

مختلفة في وقت واحد إنما يراد به الأعمال ولا ينطبق على الاحساسات والخواطر ، فإن لحظة واحدة صغيرة أو أقل من لحظة قد تكون بين خاطرة الميل الى القتل في النفس ، وبين خاطرة الرجوع عنه والتوبة والندم . وربّ دقيقة واحدة قد تجمع بين النزعة الشريفة والنزعة الدنيئة في النفس . فالحقيقة هي أن النفس الانسانية لا تجمع بين الأضداد فحسب ، بل تجمع بينها فيما يكون أشبه بالوقت الواحد . وهذا ما لا يفطن إليه الذين يحكمون على النفوس بخطراتها ونزعاتها .

(١٤) فينبغي أن نصحح أحكامنا العامة على الناس تصحيحاً دائماً مستأنفاً أولاً فأولاً بالخبرة وضرورات الحياة وبما في النفوس البشرية من قهر وإلزام مع مراعاة الواجب المفروض وتنوعه في الحالات المختلفة . فاذا نقدنا إنساناً نقدناه من غير التجاء الى الكذب والباطل والمبالغة . وهذه أمور قد تتسرّب إلى رأينا . إما عن طريق الشهوات ، وإما عن طريق تطبيق أحكام عامة مطلقة وضعها من لا يميز الأمور بالتجارب والخبرة .

(١٥) كثيراً ما تدهشنا الشدة ونباغت بها من أناس عُرفوا باللين . والسبب في ذلك أن لينهم من اطمئنانهم الى عودة وقوع الأمور المألوفة المعتادة . فإذا جاء غير المألوف ارتاعوا وظهر ارتياعهم في شدّتهم وعنفهم . ودلّ ذلك على نقص في خبرتهم لأمور الحياة ونفوس الناس .

(١٦) يخيّل لنا أن بعض الناس يجدون لذة في حماقتهم وشراستهم وغيظهم حتى أنهم يحرمون أنفسهم من مسرات كثيرة ممتعة ، كي يتمتعوا بلذة الحماقة والغيظ .

(١٧) قد تجتمع في بعض النفوس صفات هي الشدّة والشعور بأنها صالحة وحب السيطرة على غيرهم مع ضيق في الفكر والخيال . فإذا اجتمعت هذه الصفات في أناس لم يكن سبب نفورهم من انسان واضطهادهم إياه تلك المعرفة الممزوجة بالجهل والشك والتي يسمونها الحقيقة . ولكن السبب أنهم في حاجة الى أن يملؤا فراغهم من الفكر ، وأن يسدوا ثغرة في التأمل، وأن يخفوا خلوهم من الحكمة، وأن يشبعوا حب سيطرتهم على غيرهم، وان يباهوا الناس بصلاحهم ، وأن يقنعوا غيرهم به — وهذا اذا كانوا على شيء من الفضل . وقد يكون السبب

شعورهم بنقيصة في أنفسهم يقتصون لها بالتشفي وبالكيد لغيرهم ، أو يكفّرون عنها بانتقاص غيرهم واضطهاده .

(١٨) ثق أنك اذا رأيت إنساناً يدّعي أنه أطيب نفساً ممن هم حوله ، فهو إما أن له أرباً يخفيه بادعاء ذلك ، وإما أن نفسه قد تغلغل فيها الكبر الروحاني ودنس العجب النفسي . وهذان الكبر والدنس يختلطان بفضله فيفسدانه كما تفسد العفونة المأكولات .

(١٩) تنتقل النفس من الصدق الى الغش في معاملتها لنفسها . ثم ترى الغش خطة ضرورية تسوغها بلباقة ، فترى جمال الأعمال وقبحها من نسيج واحد . وكما ان الدول قد تأخذ على دولة عملاً عدائيًّا ثم تذعن لما يسمى في عرف السياسة الأمر الواقع . كذلك النفس تذعن للأمر الواقع منها حتى تفاجأ بالقصاص .

(٢٠) ان الرجل الذي ليست له ثقة بنفسه قد يكتسب ثقة بنفسه اذا عاشر رجلاً له ثقة كبيرة بنفسه إذ أن للثقة بالنفس عدوى ، ومثل ذلك مثل الذي أصابه البرد يأنس الى من لفحه الحر ليدفىء نفسه بحره . فيقل أثر القر فيه — على ان هذه المعاشرة قد تأتي بعكس ذلك إذا خشي الأول ان يقحم نفسه فيما يقحم الثاني فيه نفسه بالاقدام من ثقته بها ، وفي مثل هذه الحال اذا لم يُجَارِ الأول الثاني في إقدامه وثقته بنفسه . يوشك ان تنفصم عُرَى الصداقة والمعاشرة ، إلاَّ إذا لم يكن ملزماً بهذا الاقدام . وإذا أقدم وحيل بينه وبين باعث ثقته ولاقى صعوبات أو خصومات كُشِفَ ضعفه . وإنما مَثَلُهُ حينئذٍ مَثَلُ السلك الذي يُزَوَّد بالكهرباء فاذا فصل عن مصدر الكهرباء فقد قدرته الكهربائية .

(٢١) ان المرأة مهما كانت معجبة بنفسها لا تشعر بجمالها وحلاوة أنوثتها شعوراً تامًّا إلاَّ إذا أحبها رجل . فإن حبه يزيدها ثقة بقدرة ملاحة أنوثتها ، فتتيقظ وتحس إحساسات ما كانت تحسها من قبل . وهذا هو سبب قدرة الرجال على خداع النساء . فإن الرجل اذا أتقن تمثيل مظاهر الحب أحست شكراً له وعطفاً عليه ، وهذا ما كان يصنعه لاندرو قاتل النساء في فرنسا ، فانه كان يقنع المرأة أنها ذات جمال وحلاوة أنوثة ، فتنقاد له وتطيعه طاعة من نوم تنويماً مغناطيسيًّا ، إذ الايحاء النفسي شبه تنويم .

(٢٢) في بعض الأحايين ترى سفينة تعجب الرائي وتحسبها محكمة الصنع وتقبل شركات التأمين أن تؤمّن عليها، فاذا صادفتها أول عاصفة شديدة غرقت واتضح ان ذلك كان بسبب عيب خفي في بنائها، ونقص مستور في تركيبها. وكذلك الانسان يعجب الرائي فاذا صادف أول محنة أو امتحان لنفسه ولقدرته النفسية أو بدهه خطب لم يكن يتوقعه أو أمر من أمور الحياة مفاجيء غير منظور ظهر من طباعه ما كان خفيًّا وتغير أو تدهور أو تخبط فيكون حاله كحال تلك السفينة.

(٢٣) يُشَبِّه بعض المؤلفين طبيعة الانسان بطبيعة الموجودات ويقولون ان الطبيعة تصلح ما أفسدته بالضياء والماء والهواء وبتجديد النمو ولكن الشجرة التي قد اقتلعت أو صعقت لا تعود الى النمو وان نمت غيرها والتلال التي بعثرت لا تتجدد وان نشأت غيرها فليس هناك اصلاح حقيقي تام في طبيعة الموجودات أو في طبيعة الانسان.

(٢٤) يقولون إن الانسان إنما يجني في الحياة ما يزرع ولكن هذا ليس كل الحق فكما ان الانسان يجني ما يزرع فانه قد يجني ما لم يزرع، كما انه قد يجني من النبات والزهر والأشجار ما لم يزرع وما ينمو بنفسه أو بعمل غيره وهذا يصدق في الخير كما يصدق في الشر.

(٢٥) اذا عظم إحساسنا الى حد كبير نما الاحساس الى درجة يخلو فيها من حب النفس الذي ابتعثه ويصير ناراً تتطلب كل شيء في النفس وقوداً لها وغذاء للهيبها. وهذا يفسر لماذا ننكر أن إحساسات المرء وأعماله الصادرة عن إحساساته والتي تضره سببها الأثرة وحب الذات غير مدركين ان الاحساس في درجاته المختلفة وحالاته المتغايرة يتغير طبعه وتتغير نتائجه.

(٢٦) قد ننسى ان الانسان تصيبه عواقب ما يجني غيره وإن لم يكن هذا الانسان له صلة بالجناية واشتراك فيها. أليس العدل نفسه يعاقب من هم في حاجة الى الجاني أو لهم به صلة اذا عاقبه فيعاقب من يعول اذا انقطع عنهم رزقهم بالعقاب أو يعاقب أقاربهم في سمعتهم وباضطهاد الناس لهم وذمهم بسبب جريمة قريبهم.

(٢٧) في أوقات الحزن الشديد تكون فترات تتخللها . وفي هذه الفترات لا يتذكر المرء حزنه بل يتذكر حادثاً تافهاً لا صلة له بحزنه كأنما تعفيه طبيعته في تلك الفترات من تذكر حزنه والانشغال به كي يستطيع أن يعاود تحمله وهو في تلك الفترات لانشغاله بالأمر التافه بدل الانشغال بموضوع حزنه يكون كأنه أصابه بلهٌ مؤقت .

(٢٨) أهل الريف اذا كانوا في بقعة منعزلة وحلَّ بأرضهم غريب أساءوا به الظن كأنه أتى اليهم من عالم مظلم مجهول كالعالم الذي تهاجر منه الطيور شتاء الى أرض الدفء والنور. ومن أجل ذلك يتوقعون من ذلك الغريب أي شيء غريب مهما كان عمله وقوله مطابقاً للمألوف ومهما صدر من نفوسهم مما يخالف العرف المألوف فاذا ارتكب إثماً أو جنى جناية بعد زمن طويل وبعد مزاولة الخلق المألوف زعموا أن ذلك مصداق لما توقعوا منه من أول الأمر . فالذي يولد بينهم يكتسب بولادته شيئاً من الثقة به والألفة له ، أما من لم يولد بينهم فكأنما وُلد وجاء الى هذا العالم في نظرهم بطريقة غير طبيعية مثل طرق الشعوذة . وحقيقة هذا الحذر من المجهول مشاهدة حتى في نفوس الناس اذا حذروا ممن ينقطع عن زيارتهم ومعاشرتهم أو مجالستهم. ولعلها ناشئة عما في النفوس البشرية من أمور مجهولة ومن غريزة تمكنت في النفوس من قديم الزمن من عهد الكهوف وسكانها، ومن عهد كان كل إنسان يخشى كل إنسان ويصون حياته بذلك الخوف .

(٢٩) ان بعض ما يسميه الناس خيالاً إزراء به قد يكون تعلقاً بحياة أتمّ وأعظم وبحقيقة متوقعة في المقبل من الدهر ، فبطولة الواحد الفرد أو الآحاد القليلين التي لا تؤثر أثراً كبيراً قد يعدها الناس تعلقاً بالخيال ، ولكننا نخطىء إذ نقسم البطولة الانسانية وهي متصلة مهما خفي اتصالها وكل منها قدوة وهذا الخطأ كالخطأ في تقسيم وحدات الجيش الى آحاد أو الخطأ في تقسيم أشعة الضوء محاولة لمعرفة قدرة الجيش أو الضوء .

(للبحث بقية)

ع . ش

# تحية عام جديد .. !

ارفعِ الكأسَ ؛ حَيِّ ذاكَ الوليدا   وتَرَفَّقْ ، ولا تكن جلمودا
وَيْكَ عامٌ مضى ، وأقبلَ عامٌ   لستَ تدري نُحوسَه والسعودا
لا تكن مُسرِفَ الكآبةِ ، واعلمْ   أنّ ما مَرَّ مُدْبراً لن يعودا

* * *

أبداً كنتَ تعشقُ التجديدا   فتبَسَّمْ ، وَحَيِّ عاماً جديدا
هو في صحوةِ الشبابِ نشيدٌ   يبعثُ اللحنَ بالهوى عربيدا
لا تَقُلْ أدبرتْ عذابُ الأماني :   الأماني جديدةٌ لن تبيدا . !!

* * *

املأْ الكأسَ جَهْرَةً ، وتغزَّلْ   وتَمَنَّ الأحلامَ والتخليدا ...
وابتسم للجمالِ حيثُ تراهُ   واقتبسْ من سناهُ شِعراً نضيدا
واعفُ عن ذنبه ، وسامحْهُ ، واغفرْ   ما جناهُ عليكَ ثغراً وجيدا
وانسَ ما فاتَ ، ليس يرجع ماضٍ   إنْ ألِفْتَ النواحَ والتسهيدا

* * *

دورةُ العمرِ أقبلتْ بوليدٍ   لم يزلْ في مِهادهِ مشدودا
لا تَعَجَّلْ ، واخفضْ عليه جناحاً   من حنانٍ ، وكُنْ به مَجْدودا
هو ضيفٌ وكم فرحتَ بأضيافكَ   من قبلُ ، وانتفضتَ سعيدا
حَيِّه شاكراً ، وقَبِّلْهُ في رفقٍ   وضُمَّ الصغيرَ ضمّاً شديدا
فلعلَّ الآمالَ تصدُقُ فيه   ولعلَّ الضليلَ يغدو رشيدا

مختار الوكيل

# صورة العصر

## فى شعر شوقي

إن الشعر الصادق هو ما كان مرآةً لعصره، وسجلاً لبيئته، وديواناً لأيامه، وتعبيراً لأحاسيس قائليه، وصدى لمشاعر قارئيه .

والعصر فيه من البيان الفاتر والقوي، والطبيعي والمتكلف . وفيه من الألفاظ الذابل والمورق، والباهت والمتألق . وفيه من النفوس البريئة واللئيمة، والصادقة والزائفة . وفيه من الصور المفرحة والمفجعة، والسارة والحزينة .

فيه كل هذه الألوان على تباينها، وهذه المشاهد على تنافرها، ما بين قديمها وجديدها، وصحيحها وباطلها، وجميلها وقبيحها . إذ ليست الحياة كلها تعبيراً جميلاً عن شعور صادق، بل في الحياة شعور غير صادق، يعبر عنه تعبيراً غير جميل . وفيها شعور كاذب، يعبر عنه تعبيراً جميلاً، وفيها شعور صادق، يعبر عنه أحياناً تعبيراً جميلاً، وأحياناً تعبيراً غير جميل . والشعر لون من ألوان هذه الحياة .

وفي شعر شوقي كثير من ملامح عصره، وسمات زمنه، وسجل أحداثه، وصدى لآلام جيرانه، وأماني قومه.

لقد تخطّى شوقي أدواراً في حياته الفنية : فكان يرد في أول أمره موارد القدماء، فامتلأت نفسه بصور من شعر فحول الشعراء الأقدمين، كأبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعرّي وغيرهم، فتبعهم في اساليبهم وألفاظهم ومعانيهم وأخيلتهم، ولكنه مع هذا يميل الى الابتكار في أسلوبه، والابتداع في خياله، حتى لقد تقرأ في كلامه معنى غيره فيخيل اليك أنه معنى مبتكر لم يسبق اليه .

أنظر أبياته التي نظمها في أول شبابه وسنه يومئذ (٢٣ سنة) وهي من شعره السائر :

خدعوها بقولهم حسناء     والغواني يغرهنَّ الثناء
ما تراها تناست اسمي َلما . كثرت في غرامها الأسماء
ان رأتني تميل عني كأنْ لم     تكُ بيني وبينها أشياء
نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ     فكلام فموعدٌ فلقاء

فأعجب من موهبة شوقي في التوليد ، إذا عرفت أنه أخذ البيت الثاني من قول ابي تمام :

أتيت فؤادها أشكو اليه     فلم أخلص اليه من الزحام

فمر المعنى في ذهن شوقي كما يمر الهواء في روضة ، وجاء نسيماً يترقرق بعد ما كان كالريح السافية بترابها . لأن الزحام في بيت أبي تمام حقيق بسوق قائمة للبيع والشراء ، لا بقلب امرأة يحبها . فقد سبق شاعرنا أبا تمام بمراحل في ابداعه وذوقه ورقته .

والبيت الرابع أخذه من قول الشاب الظريف :

قف واستمع سيرة الصب الذي قتلوا     فمات في حبهم لم يبلغ الغرضا
رأى فحب فسام الوصل فامتنعوا     فرام صبراً فأعيا نيله فقضى

فما أشبه بيت الشاب ببيت قروي بُني من الأحجار الخشنة وترك من غير أن يطلى بجص أو دهان فظل خشن الملمس ريفي المنظر . أما بيت شوقي فأشبه شيء ببيت من مرمر أو رخام مصقول ، ناعم الملمس ، متألق المنظر ، فاتن الرواء .

ذلك لأن الشاعر الفنان كالمصور الماهر ، يرسم مناظر الطبيعة كما يرسمها سواه ، ولكنك ترى براعته تدل عليه وأسلوبه يعبر عن افتنانه ، وما في نفسه من أسرار الفن وتمكن الجمال كما تجد المصور يرسم ما رسمه غيره ، ولكنه يؤلف بين اللون واللون ويبرز ما بينهما من التناسق والمشاكلة فيخيل اليك أنه شيء جديد .

وهل الفن إلاَّ هذا السر الذي بثه الله في نفوس الفنانين ، فيبرز كل منهم ما في نفسه وما علق بها من إدراك ، وما قدر عليه من تنسيق .

أنظر اليه وهو يصوُّر نهاية الحياة ، وأن ما على الأرض من ترابٍ ان هو إلاَّ رفات الماضين ، وبقايا عظام السالفين .

كرة الأرض كم رمت صولجانا     وطوت من ملاعب وجياد

فالغبار الذي على صفحتيها      دوران الرحى على الأجساد

اذا علمت ان هذا المعنى ينظر الى قول المعري .

خفف الوطء ما أظن أديم الأ      رض إلاَّ من هذه الأجساد

فأي فرق بين الصورتين ! وأين ابتكار شوقي واستمداد تصويره من نوع من لعب الكرة ، يلعبها اللاعبون ، وهم على صهوات جيادهم راكبون ، فأين هذا من سذاجة المعرّي وبساطة تعبيره ؟ فهوَ فرق ما بين عصر المعرّي وعصر شوقي .

واستمع اليه وهو يصف ما بين الشمس والحياة من صلة ، ويصوّر أثرها في الناس من المبدأ الى النهاية ، ومن الحياة الى العدم ، ومن الوجود الى الفناء ، جامعاً في ايجاز قصة الحياة ، متنقلاً بسرعة من الميلاد الى الوفاة . وذلك في قصيدة ( توت عنخ آمون ) فهو يعمد بذلك الى تهيئة الجوّ للحديث عن الآثار الخالدة ، وفعل الدهور والأزمان فيما خلفه الانسان ونسجته الحضارة . فيقول :

مشيتِ على الشباب شواظ نارٍ      ودرتِ على المشيب رحى طحونا
تعينين الموالد والمنايا      وتبنين الحياة وتهدمينا
فيا لكِ هرّةً أكلت بنيها      وما ولدوا وتنتظر الجنينا

أليس هذا حقًّا ؟ نقد بريء من كل سقم لفظي أو معنوي ، فهو عذب في كل ذوق ، مستساغ في كل فهم . أرأيت الصورة الجديدة التي تعيد الى الأذهان أسطورة مصرية شائعة في أن الهرة تأكل بنيها وهم صغار وتنتظر الأجنة لتفعل بهم كما فعلت بأخواتهم ، مع انها هي أمهم ، والمعينة على وجودهم . فأي حكمة بالغة في هذه الصورة ، وأي عبرة عامة في هذا التمثيل .

فلشوقي شعر تبين فيه شاعريته ، وحسن غوصه ، وفوزه بالمعنى الجيد ، وحسن أدائه في اللفظ الرشيق ، وتأثره بصور العصر الحديث ، مما بعد فيه عن التقليد ، وخلص من قيود القديم ، فلم يتكلف ولم يتصنع ، وانما شعر وأحسَّ ، وجرى قلمه بما أحسَّ وما شعر . وليس هذا الشعر بالشعر القليل ، حتى في معارضاته فقد كانت تبدو عبقريته الخالقة واضحة متمايزة .

قال في قصيدته التي يعارض بها بردة البوصيري يصف الدنيا .

يا نفس دنيـاك تخفي كل مبكية     وان بدا لك منها حسن مبتسم
فُـضي بتقواك فاهاً كلما ضحكت     كما يُـفض أذى الرُّقطاء بالثرم
مخطوبة منذ كان النـاس خاطبة     من أول الدهر لم ترمل ولم تئم
لا تحفلي بجناها أو جنايتها     الموت بالزهر مثل الموت بالفحَـم

أرأيت الى رائع التصوير وقوة التخييل ، وجلال موسيقا القدم ، ووقار هيبة الحكم. أبى شوقي إلاَّ أن يجدّد ويجعل للعصر صورته ، ويحترم له ميسمه ، فقال ان ( الكربون ) يقتل في الزهر كما يقتل في الفحم . فهذا معنى عصري جديد .

* * *

ثم اقرأ له وهو يناقش فكرة لم تكن في عصر البوصيري ، وإنما هي فكرة حديثة جاء بها المستشرقون يرمون الدين الاسلامي بأنه نشر بالسيف لا الاقناع .

يقول شوقي :

قالوا غزوت ورسل الله ما بُـعثوا     لقتل نفس ولا جاءوا لسَفْـكِ دَمِ
جهلٌ وتضليلُ أحلام وسفسطةٌ     فتحت بالسيف بعد الفتح بالعلم
لما أتى لك عفواً كلُّ ذي حسب     تكفّل السيف بالجهال والعَمَمِ
والشر إنْ تلقه بالخير ضقتَ به     ذَرعاً وإنْ تلقَه بالشر يَنحسم
سل المسيحية الغراء كم شَربَتْ     بالصاب من شهوات الظالم الغَلِمِ
لولا حماة لها هبُّوا لنُصرتها     بالسيف ما انتفعتْ بالرفق والرُّحُم

يريد أن يقول إن كلام هؤلاء المعترضين سفسطة محضة ، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وان نبيّ الأسلام في بدء دعوته لم يأل جهداً في الدعوة بالرفق والمقارعة بالبرهان ، وإنه ما دفع الى الضرب والحرب إلاَّ من بعد ان رأى عقم الوعظ والنصح ، وان لا حيلة في الجهل والظلم اذا مرد الناس عليهما إلاَّ بالتأديب .

أنظر الى هذه المسيحية التي تعلن أنها دين السلام أصابها من الطرد والقتل ، والتعذيب والانتقام والاصطلام ما لا تسعه الكتب المؤلفة ، وبقي ذلك مدة ثلثمائة سنة الى أن تنصر

قسطنطين ، فحينئذٍ استقرت قواعدها ، وانتشرت في الأرض وأمنت الغوائل ، ولم تنتشر إلاّ بقوة ملوكها وسلاطينها .

وإذا أردت تاريخاً عصريًّا ، وسجلاً جديداً لأحدث الحوادث ، وأقرب أفاعيل الزمان ، فاقرأ له :

يارب هبت شعوب من منيّتها  واستيقظت أمم من رَقدة العدَم
سعدٌ ونحسٌ ومُلكٌ أنت مالكهُ  تُديل من نِقم فيه ومن نعَم
رأى قضاؤك فينا رأيَ حكمته  أكرِمْ بوجهك من قاضٍ ومنتقم
فالطُف لأجل رسول العالمين بنا  ولا تزد قومه خسفاً ولا تسُم
يارب أحسنتَ بدء المسلمين به  فتمّم الفضلَ وامنح حسنَ مختتم

لم يترك شوقي رحمه الله أيَّ فكرة اجتماعية يرى لها خطراً في كيان المجتمع إلاّ أبدى رأيه فيها وأنار الطريق للسالكين في مهامها . فقد أرّخ قصة الحجاب والسفور ، وناقض رأيه الأخير رأيه الأول فيها فدل على التبدل فلم يستح أن يسجل هذا التطور ، ويشايع الجديد من صورة العصر .

قال أولاً في قصيدة عنوانها « بين الحجاب والسفور » ينكر السفور ولا يرتضيه .

صَدَّاح يا مليك الكنا  رِ ويا أمير البُلبلِ
ما كنتُ يا (صداحُ) عندك  بالكريم المُفَضلِ
شَهْد الحياة مشوبةً  بالرق مثل الحنظل
ياطير لولا أن يقو  لوا جُنَّ قلتُ تعقل
اسمع فربَّ مُفَصَّل  لك لم يفدك كمجمل
صبراً لما تشقى به  أو ما بدا لك فافعل
أنت ابن رأي للطبيعة  فيك غير مُبدل
ابداً قروع بالاسا  ر مهدد بالمقتل
إن طرت عن كفني وقعت  على النسور الجُهَّلِ

ثم بعد سنين تطورت الأفكار ، وازدادت الحرية ، وتقبل الناس الجديد ، وأخذت

المرأة في النهوض ، فقال قصيدة ألقيت في حفلة نسائية عظيمة انعقدت بدار التمثيل العربي برئاسة السيدة هدى هانم شعراوي .

قل للرجال طغى الأسيرْ    طيرُ الحجال متى يطيرْ
أوهى جناحيه الحديدُ    وحز ساقيه الحريرْ
ذهب الحجاب بصبره    وأطال حيرته السفورْ
هل هُيِّئت دَرَجُ السما    ء له وهل نص الأثيرْ
إن السماء جديرة    بالطير وهو بها جديرْ
هي سرجه المشدود وهو    على أعنتها أميرْ
حريةٌ خُلق الإنا    ث لها كما خُلق الذكورْ
يا قاسم انظر كيف سا    ر الفكر وانتقل الشعورْ
جابت قضيتُك البلا    د كأنها مثلٌ يسيرْ
لقد اختلفنا والمعا    شر قد يخالفه العشيرْ
في الرأي ثم أهاب بي    وبك المنادم والسمير
ومحا الرواح الى مغا    ني الود ما اقترف البكور
في الرأي تضطغن العقو    ل وليس تضطغن الصدور

على انه لا بد لصدق النقد من أن نذكر ألفاظاً جاءت في شعر شوقي، بعضها فاتر وبعضها غير فاتر ، ولكنه ابن البيئة المصرية .

كتب على صورة مهداة لصديق :

سمت لك صورتي وأتاك شخصي    وسار الظل نحوك والجهاتُ
لأن الروح عندك وهْيَ أصل    وحيث الأصل تسعى الملحقاتُ
وهبها صورة من غير رُوح    أليس من القبول لها حياةُ

فالمعاني مبتكرة ولكن فيها لفظتان فاترتان وهما « والجهات » و « الملحقات » . وجاء في قصيدة ذكرها في مفتتح ديوانه المطبوع أول مرة تحت عنوان « الى أمير المؤمنين عبد الحميد الثاني » .

سلام الله لا أرضى سلامي     فـكل تحية دون المقام

وقال :

فان تفت الموانع منه حظي     فليس بفائت حظ الـكلام

وبعد أن قدَّم هذه التحية الى الخليفة عاد فشفعها بتقدمة الى الخديوي فقال :

وما حاولت من عصر عظيم     من الآداب للوطن العظيم
فكنه يا ابن توفيق فاني     نخيم الظن في الجاه الفخيم

أسمعت الى الألفاظ السائرة الشائعة على الألسنة « دون المقام ، الموانع ، حظ الـكلام الوطن العظيم ، الجاه الفخيم » . على أنه لا يوجد في اللغة العربية « نخيم » . وانما هو الفخم ولـكن شوقي على ما يظهر التقطها من الأفواه .

وقال في قصيدته الاندلسية وهي احدى آيات شوقي الخالدات ، لما فيها من التشبيهات الطريفة والصور الرائعة والأخيلة الجميلة كقوله :

نبا فلم نخل من رَوْح يراوحنا     من بر مصر وريحان ينادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا     وباسمه ذهبت في اليم تلقينا

ولـكن لم تخل هذه الدرَّة الثمينة من ضعف في الأسلوب أحياناً يدعو الى استغلاق في المعنى واستبهام في المقصد ، ومن ألفاظ سرت الى شوقي من لغة الحديث المصرية الدارجة مثل قوله :

جئنا الى الصبر ندعوه كعادتنا     في النائبات فلم يأخذ بأيدينا

وإذا أردت أن ترى صورة العصر واضحة في أخيلة شوقي ، وسمات بيئتـه بارزة في صوره فاقرأ له الأبيات الآتية :

يقول في رثاء ( أبي هيف ) وكان وقف معارضاً لمشروع ( ملنر ) وقفة تاريخيـة لا تنساها له مصر ، وأعدَّ تقريراً شاع واستحقَّ التقدير .

لـما رأى ( التقرير ) ينفث سمه     سبق الحُواة فأخرج الرقطاء

فقوله ( سبق الحواة فأخرج الرقطاء ) لا يمكن أن يكون هنـاك أبلغ في الاعجاز ، وأدق في الإيجاز ، من هذا الـكلام . فقوله ( سبق الحواة ) صورة كاملة تريك كيف وثب الفقيد ، فوقف أمام المشروع ، كما يثب الحاوي فيقف أمام جحر الحية ، وقوله ( فأخرج

الرقطاء ) أعظم ما يمكن في تصوير ذلك المشروع ، فقد نبه على السم الكامن فيه ، على الرغم من جماله الظاهري ، ونعومته الشبيهة بنعومة الحية .

وقال في رثاء محمد بك فريد من قصيدة أولها :

كل حيّ على المنيـة غادي    تتوالى الركاب والموت حادي

الى أن قال يصف صورة للجنازة هي من صورة العصر

ساقة النعش بالرئيس رويداً    موكب الموت موضع الإتئاد
كل أعواد منبر وسرير    باطل غير هـذه الأعواد
تستريح المطي يوماً وهذي    تنقـل العالمين من عهد عاد
لا وراء الجيـاد زيدت جلالاً    منذ كانت ولا على الأجياد

وقال في قصيدة عنوانها « الربيع ووادي النيل » .

والنخل ممشوق القدود معصّـب    متزين بمناطق ووشاح
كنبات فرعونٍ شهدنَ مواكباً    تحت ( المراوح ) في نهارٍ ضاح

ومن ذا يستطيع أن ينكر صدق العاطفة وقوّتها ، في جدّة صورتّها ، وجمال تعبيرها في قوله :

وطني لو شغلت بالخـلد عنـه    نازعتني إليه في الخـلد نفسي

وإذا أردنا أمثلة واضحة لقوّة شاعريته ، وجدّة تنسيقه ، وابتكار تصويره ، فلنأخذ ذلك من معارضاته ، فهي ميزان دقيق للشخصية ، ومحك صادق للشاعرية .

حيث فيها يبين مبلغ خلاص الشاعر من قيود التقليد ، وبعده عن نماذج المعارضة واحتذائها .

فقد كان شوقي كثيراً ما يكلف بمعارضة المتقدمين ولا يندر عليه أن يبزهم .

استمع الى شوقي والبوصيري في قصيدة « نهج البردة »

يقول البوصيري :

ولا تزوّدت قبـل الموت نافلة    ولم أُصلِّ سوى فرض ولم أصم
ظلمت سنة من أحيا الظلام الى    أن اشتكت قدماه الضرّ من ورم

ويقول شوقي :

وإن تقدَّم ذو تقوى بصالحة    قَدَّمتُ بين يديه عبرةَ النَّدم
لزمتُ باب أمير الأنبياء ومَن    يمسك بمفتاح باب الله يغتنم

في أبيات البوصيري تجد ألفاظاً فقهية اصطلاحية ، بعيدة عن ألفاظ الشعر وموسيقاه وليس فيها فنٌّ ولا تصوير . وأروع ما فيها وصفه صلى الله عليه وسلم في تهجده وقيامه بالليل .

أما شوقي ففي ألفاظه موسيقا قوية رائعة ، والتعبير بقوله ( أمير الأنبياء ) تعبير جديد . ثم انتهاء البيت التالي بحكمة جارية مجرى المثل على طريقة المتنبي ، وهو أشد الشعراء أثراً في شوقي ، وموسيقا شعره ، وجزالة ألفاظه ، وقوَّة أسره .

ثم إذا انتقلنا الى ( داليته ) التي يعارض فيها الحصري ، نجده مستمدًّا فنه مما حوله من صور العصر ، في مثل قوله :

ناقوس القلب يدق له    وحنايا الأضلع معبده

وفي ( سينيته ) التي عارض فيها البحتري ، وقد كان وهو بالأندلس قد استأجر منزلاً في ضاحية جميلة من ضواحي برشلونة ، وهي مرتفعة كثيراً عن قلب المدينة ، لذلك كان في استطاعته أن يشهد بسهولة البحر المتوسط الجميل ، والسفن وهي رائحة غادية فيه ، ليل نهار ، فبعث منظرها فيه الحنين الى الوطن فقال شوقي يصف ذلك المنظر .

وسلا مصر هل سلا القلب عنها    أو أسا جرحه الزمان المؤسِّي

فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالي ، وجعل جرحه في هوى مصر أعضل من أن يطبَّ له الزمان .

وانظر إليه كيف وصف قلبه حين قال :

كلما مرَّت الليالي عليه    رق والعهد في الليالي تقسِّي
مستطار اذا البواخر رنت    أول الليل أو عوت بعد جَرْس

فهو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق ، أو هبَّ النسيم ، كما كان يتحدث الأعراب ، وإنما يصف ما يشاهده الغريب على شواطىء البحر المتوسط ، وأين وميض البرق وهبوب الريح ، من أصوات البواخر في غسق الليل . ثم قال :

يا إبنـة اليمّ ما أبوك بخيل    ما له مولعاً بمنـع وحبس
أحرامٌ على بلاله الدّو    ح حلالٌ للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل إلاّ    في خبيث من المذاهب رجس

فقد وصف شوقي مصر في ذلك الحين بما يصدق عليها ، ورمى رمية مسددة في صدر الظلم ببيته الأخير .

ثم قالِ في خطاب الباخرة :

نفسي مرجلٌ وقلبي شراعٌ    بهما في الدموع سيري وأرسي
واجعلي وجهك « الفنار » ومجرا    ك يد « الثغر » بين رمل ومكس
وطني لو شغلت بالخلد عنه    نازعتني اليه في الخلد نفسي
وهفـا بالفؤاد في سلسبيـل    ظمأ للسواد من عين شمس

أي نفس يمثلها شوقي في هذا الوصف البديع غيرالنفس المصرية ؟ وان الذي يعيش في مصر ، وله ذوق شوقي واحساسـه ، ليس بكثير عليه أن يقـول مثل هذا الشعر الصادق الجميل .

أما إذا أردت أن تبحث عن خفة الروح المصرية ، والتهكم اللاذع في فكاهة حلوة وحسن ظرف ، فاستمع اليه وهو يقول في قصيدة « توت عنخ أمون » .

أمن سرق الخليفة وهو حيٌ    يعف عن الملوك مكفنينا

ثم ينتقل الى مخاطبة الملك فؤاد في التعجيل باستصدار الدستور .

فعجل يا ابن اسماعيل عجل    وهات النور واهد الحائرينا
هو المصباح فأت به وأخرج    من الكهف السواد الغافلينا

ألست ترى معي أن هـذا البيت الأخير يخيّل إليك ذلك ( الدليل ) وهو يخرج السائحين من كهوف الاهرام ، وبيده مصباحه . فهي صورة مصرية متكررة كل يوم .

وكان لشوقي ابن خال طويل الأنف ، فنظم فيه مداعباً هذين البيتين

لك أنف يا إبن خالي    تعبت منـه الأنوفْ
أنت بالبيت تصلي    وهو بالركن يطوف

وبعد فان الزمن بعد شوقي أصبح أقوى في الدلالة عليه ، وأصدق في الشهادة له ، كما تكون الظلمة بعد غياب القمر تفسيراً قويـاً ، وشرحاً طويلاً لمعنى ذلك الضياء ، وإن سطعت فيها كواكب تهدي ، وتألقت فيها نجوم تضيء .

عبد الوهاب حموده

# عرس الطبيعة

عادت شُفُوف الروابي    بِسَورها الخلّاب
ما بين أحمر قانٍ    وبين أصفر كاب
وبين أخضر زاهٍ    وأبيض كالحَبَاب
من جلّنار وآسٍ    في روضةٍ معشاب
ويا سمين تدلّى    على ذرى ( اللبلاب )
ومن قرنفلَ يرنو    لطلعة الأعناب
وزَنْبَقٍ وأقاحٍ    تداعيا للتصابي
فمن زهورٍ تجلت    منشورة الأسراب
ومن زروعٍ تعالت    فوق الحصى والتراب
مبثوثة في مهاد الغـ    ـبراء بثّ الزرابي
تسقى بماء نميرٍ    من جدولٍ وشعاب
بين البواسق تجري    في عطفة وانسياب
وخفّت الطير تأوي    الى الغصون الرطاب
تلقي الأهازيج لحناً    من شدوها الجذّاب
ورفّ قرص ذُكاء    خلف الشعاع المذاب
يزحزح الليل في الركـ    ـب ، زاخر الأسلاب
بما احتفى من مَرَاحٍ    وما احتوى من عذاب

ورقّت الريح حتى   تخالها في لُغاب
تهدي الأريج زكيًّا   في روحةٍ وذهاب !!

* * *

لاح الربيعُ بهيجاً   في زي الوجوه العِذاب
بما اكتست من بُرودٍ   من حسنه ، وثياب
مطرّزاتٍ بوشيٍ   من كل لونٍ ساب
أضفى النماء عليها   بنضرةٍ وشباب !!

* * *

عرس الطبيعة يزجي   من بعد طول غياب
أفراح فصلٍ تراءت   بعونق الأسباب
على حنين المثاني   ورنّة الأكواب
وراقصات العذارى   وقُبْلة الأحباب
ومن طرائفٍ شتى   مسطورةً في كتاب
حروفها ولُغاها   بصائر الألباب
تكاد تنطق جهراً   في روحها الوثّاب
بمبدعات المعاني   وملهمات الخطاب
تدعو الأنيس مليًّا   في موكبٍ جوّاب
لفتنة الأعجاب   وروعة الآداب !!

القاهرة

عبد السلام رستم

# في ظل القانون

آن أن يؤوب أخوكِ والساعة موعده . البدار . البدار . فقد وجدتُ بالأمس عذري عنكِ . وما يملكي اليوم أن أفعل .

هذا ما علا به صوت الأم وهي تطل من النافذة تدعو إليها ابنتها ، وكانت يدها في يد ترائب لها يمضينَ عصرهنَّ في براح من الأرض تلتف به الدور ، وكانت لم تسعد بلقاء صواحبها إلاّ منذ حين قصير . غير أنها ما سمعت ذكر الأخ حتى نفضت اليدين مما أخذت فيه وعادت أدراجها الى المنزل تطوي مراقي السلم مثنىً مثنىً .

ودلف الأخ بعد قليل يتأبط عدًّا من الكتب يمشي على استحياء وبصره الى الأرض . وما جاز أسكفة الباب حتى دفعه في عنف ملأ البيت صدًى وهزَّ أركانه . فعرف سكان الطبقات الثلاث ، وكانوا عشيرة واحدة ، أن « خليلاً » قد آب من المدرسة . فخفتت الأصوات ، وهرع الصغار الى مأمن ، مخافة أن يصيبهم سوء جزاء تجمّعهم على درجات السلم .

وتُسرع الأخت فتهيء لأخيها ما يحب في غرفته . والويل لها إن لم تلقن عنه في خفة ، أو أصاب فيها إبطاء ووقعت عينه منها على ما لا يرضاه .

هنا مترك الحذاء ، وهناك محفظ الحلة . وفي ضوء النافذة نضد صغيرة اتسعت رقعتها لكتب وكراسات بينهما مصباح زيتي . وغير بعيد أريكة فاضت على جنباتها ملاءة تقاسمتها الألوان . تمتد أمامها قطعة من بساط انجرد خمله وبقيت خيوطه .

* * *

في تلك الغرفة اعتزل « خليل » تاركاً لأمه وأخته غرفة أخرى تفصل بينهما ردهة وعت جرَّة كبيرة تتسع لقربةٍ من الماء يحملها إليهم مع الصباح السقاء . والى جانب الجرَّة واعية للماء صغيرة يخرج من أسفلها صنبور يصبُّ في طست صغير يختلفون إليها جميعاً

كلما عنّ لهم أن يغسلوا وجهاً أو يداً . ومع الجرّة والواعية موقد للغاز وقليل من أوعية وأطباق فيها منافع لهم .

وقد ألِف الفتى أن يقضي الكثير من وقته في هذه الغرفة وحيداً ، إلاّ من كتاب، صامتاً إلاّ حين يقرأ . حتى إذا ما تكشف له نور الصباح غدا يخبّ الى مدرسته . يسعى إليها بكرة وينقلب منها عصراً على رجلين أبلتا الطرق وما كلّتا.

وكان لا يجلس إلى أُمه إلاّ مع أول كل شهر حين تجتمع في يده تلك الجنيهات الخمسة ، غَلَّةَ أشطار في دُور مجاورة ، هي كل ما مات عنه والده .

والحي من الأحياء التي تضامت سبلها وتزاحمت فيها البيوت بالمناكب حتى كادت تتلاقى رءوسها .

والناس هنا حريصون على أن يحفظوا للجوار حرمته، فالنوافذ مغلقة والستور مسدلة، إلاّ جانباً من النهار تأمن فيه قعيدات البيوت أن الرجال إلى مسمى، وأن البيوت منهم خاوية ، فلا غرو إن رأيت الفتى قد غلّف زجاج نافذته بأوراق ذات لون حتى لا يؤذي جارة ولا يتهم بريبة .

وقد وكل الى أخته في غيبته أن تعنى بحجرته ، تسوّي ما تشعث منها وتجري فيها يدها بالتنظيف والاصلاح بعد ، أن تفتح النافذة ساعة ثم تغلقها .

وكان إلى أسفل دار « خليل » حانوت يسوس أمره شيخ قد خلّف الخمسين احترف العطارة ، يجلس إليه مع المساء صفوة من شيوخ الحي ، يسمرون في حديث جُله عن مبلغ العفاف من النفوس اليوم . والحديث يجرّهم إلى الماضي القريب فيكشف لهم عن سيدة الأمس في جلبابها الفضفاض وملاءتها الكثيفة وقرارها في البيت إلاّ مع سبب مُلِحّ وطارىء قاهر .

وهم إذا ذكروا هذه ذكروا إلى جانبها الفتيان قبل وبُعدهم عن مواطن الريبة وأخذهم بأسباب الحياء .

كان هذا حديث الجمع يفرغون منه ليلة ليعودوا إليه أخرى . لا جديد فيه غير ما كان يقع تحت السمع والبصر من مرئيات ومسموعات، العرض فيها معدوٌّ عليه .

وكانت الجلسة محبّبة الى خليل ، ينزل إليها مع كل مساء بعد أن يطمئن إلى أنه أدّى ما عليه وأربى . فيأخذ مكانه بينهم يستمع إلى تلك القصص ويعقب عليها مع المعقبين منهم بما يحضره من كلمات التوجع والتحسر ويسأل الله معهم رحمة لهذا الجيل الذي انزلقت به القدم وانفرط عقد الحرمات فيه فباتت الأعراض إلى تبرج والأحوال إلى غير حرص .

حتى إذا ما همَّ أن يترك مكانه بينهم سمعها على لسان أكثرهم دعوات أن يزيده الله بأهداب الفضيلة تمسكاً ، وكلمات تملأه إعجاباً بحاله ، وإمعاناً في تضييق الخناق على نفسه ، ومن إليه إيالتهم .

وعرفت فتيات الحي له ذلك يخِفْنَهُ على أنفسهنّ ، وحرصنَ على ألاَّ يسمعنَ منه كلمة تؤذيهنّ فأخلينَ له الطرق إن بدا وغلّقنَ النوافذ إن أطلّ .

وأمضى الفتى ريِّق شبابه يحول بين بصره وبين أن يرى ، ويصم أذنه عن أن تسمع ويكبت نفسه إن تحركت، وهو في كل ليلة دالفٌ الى الشيوخ في استماع وحديث ، لا ينقطع عن مجلسهم ولا يبرم به .

وأعقب عامٌ عاماً وإذا خليل مُدرِّس في إحدى المدن يضمه بيت بين بيوت انضمت هي الأخرى على فتيات نهدنَ وكعبنَ . وما أن أحسسنَ للفتى ظلاً حتى امتدت اليه الأعناق ترقبه غادياً رائحاً . والفتى على عهده لا يرفع رأساً ، ولا تنفتح له نافذة . ولو ملك هنا ما ملكه هناك حيث بيته في القاهرة للفظها كلمات كالسياط ، ولكان له معهنّ شأن .

*

وانتهزت فتاة صلة الجوار وأن البيت الى البيت يتصل سطحاهما إلاَّ من حاجز قائم من خشبات، فلزمته الفتاة ما لزم خليل سطح بيته مع العصر مشغولاً بكتابه . وما ملّت الفتاة وما أيست . وأغفل خليل أمرها فيما أغفل. وظنّت الفتاة أنه غير محسٍّ بوجودها رغم ما تشيع عنها من حركة وصوت، فمَلّت الحاجز تُوهم أنها غير عامدة وهو يراها عامدة، فطوى ما بين يديه وانحدر يبغي مأواه .

وبات على عزم ألاَّ يرقى إلى ذلك السطح . ولكنه وجد نفسه من الغد مع العصر يتأبط كتابه ويحمل كرسيه ويُصعد الى حيث اختار . ووجد صادفاً يشغله عن المضي في القراءة من بلبلة ووسوسة، فظنه ضنىً وإرهاقاً . فأخذ يفرك جبينه بيده . وهو حين يفعل يجد

بصره قد غلبه على أمره، وسارقه التفاتة الى حيث مكان الفتاة بالأمس يتفقدها .

واستحال الوهم جدًّا وأحسّ الفتى من قلبه قلقاً صدق فيه خليل نفسه حين عزاه إلى غيبة الفتاة وتخلفها عن الصعود .

وطوى عصره وأظله الليل، وما كان قبل يُظله فهبَّ من مكانه فزعاً وجرى الى السلم يحمل مع الكرسي والكتاب في يديه شاغلاً بين جنبيه . وأحس الفرق بين حالين ، حال قديمة وقفت فيها الفتاة ترغب اليه وهو عنها لاهٍ قانع بأنها تراه ، وحال جديدة خرجت فيها عليه نفسُه، وأصبح لها توْق لا يمنع وشوق لا يدفع . وهو بين الحالين حائر لا يدري أعلى رَشَد هو أم على غيّ .

تُرى أكان الفتى حين لزم الجدّ مستجيباً لنداء قلبه، وتُراه حين أخذ نفسه بهذا الحزم يراه الخير الذي لا خير سواه . لنتركه للأيام قليلاً فهي كفيلة بأن تكشف لنا الكثير عما لا نعرف الآن علّته من نفسه.

*

واختفى ظلُّ الفتاة فلم يظفر بها السطحُ أياماً لم يتخلف فيها خليل عن التبكير في الصعود والتعويق في الانصراف . وما انتفع فيها بنظرة في كتابه . بل وجد خلل الخشبات أسطراً في قراءتها ريٌّ مُشبع لنفسٍ على ظماءٍ وجوع.

*

وكتب الله للفتاة البرءَ من وعكتها فقصدت قصد السطح مع العصر ، وبها لو رأت الفتى مقبلاً عليها، فَحَسْبُها إيذاءً ما لقيت من صدوفه. واستيقظ الدلُّ من نفسها فعقدت العزم على أن تلبس له غير ما لبست . وفيما هي تدنو من الحاجز أبصرت الفتى من بين تلك الثغرات التي أحدثتْها في ذلك الجدار الخشبي ، ورأته قد لزم الحاجز يلعب بأصابعه في ثغرة من ثغره يمكّن بذلك لبصره أن يرى . فملكت أمرها وعادت أدراجها، بعد أن التقى طرفاهما غير طويل .

وكاد الفتى يصيح بها إلا أنه ملك حزمه، وقام يسعى الى كرسيه وكتابه فعلم أنه صعد اليوم دونهما . فهمّ أن ينزل ولكنه أخذ يغدو ويروح ونظره لا ينفكّ عالقاً بالحاجز حتى غابت الشمس ولم يعد يرى ما حوله فانحدر الى مأواه .

شهد الشارع الذي يقوم فيه بيت الفتى والفتاة حفلاً خفقت فيه الأعلام وسطعت الثريّات وخفّ اليه شيوخ الحي وشبانه يشهدون بناء الفتى بالفتاة .

ولم يمضِ غير قليل حتى أصبح ذلك المأوى الذي كان لخليل خالصة يتسع لزوجين لم ينقضِ على تعارفهما سوى أشهر .

ونَعِم الزوج بتلك الحياة وأفرط ولم ينسَ أن يكون حازماً فقنّع امرأته وكانت سافرة ، وألزمها البيت وكانت لها زورات ، ومنعها أن تقف الى نافذة . واستجابت الزوجة الى ما يريد ، مما كانت طامعة حين كانت تفعل ما فعلت أولاً إلاَّ في أن ترى نفسها زوجة وقد رأت ، فلتنصرف الى طاعة وليها ولتحرص على رضاه .

*

وتصل الأيام بين خليل وبين أسرة زوجه بأسباب . فيزور ويزار . ويُسأل أن يُعنى بأمر فتاة من قريبات زوجه مقبلة على امتحان. ويُخلص خليل في العون فيدعو الفتاة الى بيته أياماً ويزورها في بيتها أياماً أخرى .

وجازت الفتاة الامتحان مهنّأة ، وما انقطعت عن التخلف الى خليل في أيام رسمها لها لتعدّ للمستقبل عدته .

ورأت الزوجة في الأمر ما يريب. فهمت أن تقول شيئاً ، فإذا هي مُوعدَة بيمين. فسكتت. وحرّكت للأمر أبويها، فحاولا أن يفعلا شيئاً فما استطاعا.

*

وجرت الأمور بين الزوجين تشوبها شوائبُ لا مكان فيها لطمأنينة . فالزوج قد شغف بالفتاة حبًّا . وبوده أن يظفر بها زوجاً ، وما من خلقه أن يعيث فساداً . ولكن دون الزواج أموراً، فهو زوج ، ثم هو يرى في الجمع بين اثنتين ما يشين .

وكان ذا حيلة ودهاء . وإذا حدّثك فأنت مستمع إلى مظلوم معذَّب، جدير بالعون والرحمة . لهذا لم يجد خليل مشقة في أن يحمل أهل الفتاة على أن يقبلوه لها زوجاً ، على أن يظل ذلك سرًّا ، حتى يقضي الله بعد ذلك أمراً .

وعدّت الزوجة على الزوج غيبات طالت ، وشمّت فيه ريحاً أخرى . فمشت في إثره ، وما مثل هذا يُكتم .

وما شاع عنه هذا حتى أنكره عارفوه . فهم يرونه لا يدنو ولا يزلّ . ولكنه مَلكَ أن يقول فصدّقه من صدّقه وكذّبه من كذّبه . وانفصمت للقرابة عروة . وعاش خليل يختلف الى بيتين ، عاشا على عداء ، وكانا قبل على وفاق .

وشقى الزوج مع ما حاول من أن يجعل الأمور الى استقرار وهدوء . فخلع زوجته الأولى فخرجت عنه تحمل على كتفها بنتاً وتجرّ أخرى . وضمهنّ جميعاً البيت الذي هجرته منذ أعوام أربع . فعاشت الى كنف أمها وكانت فقدت أباها منذ أشهر .

* * *

لم تنل يد التغيير من بيت خليل في القاهرة كثيراً . فقد غادرته أُخته زوجةً وخلّفت فيه أُمها وحيدة ، يُعني بأمرها فيه جميع من في المنزل ، فهي لهنّ جدّة . أما الحانوت فقد تولاّه الابنُ بعد موت الأب ، وانفرط عقد هذه الجماعة فلم تعد تقصد إليه كما كانت تقصد .

ذلك كان الشأن حين نزل خليل بزوجه في الحجرة التي ضمته صغيراً . غير أنه استبدل بالأثاث أثاثاً جديداً وهيأ للزوجة ما رأى في غير إسراف وغلوّ .

وجرى خليل في القاهرة يتقلب بين مجالسها ، وتفتحت عيناه لأن ترى ، وأذناه لأن تسمع . ولكنه كان إذا عاد الى البيت وذكر الماضي تولّته غمرة ينطبق لها جفناه ، ويميل لها رأسه . فيعرف الناس أن الزمن بماله وجاهه لم ينل منه في قليل ولا كثير .

أما تلك الثورة التي باع من أجلها خليل أُمّاً وبنتين ، وفرّق بين أسرتين ، والتي ظنتها الزوجة الثانية هوًى لا يُنال منه ، فقد خمدت جذوتها في نفسه ، وباتت الزوجة لا تحس لها حرارة . فعاشت المسكينة مع الأم بنتاً تعني بها دون الجميع . وأصبح خليل لا يدخل عليهما إلاّ مع المساء ليقضي بينهما ساعة بين صلاة وراحة ، ثم يغادرهما في صمت كما دخل عليهما في صمت . وهو إمّا إلى عودة أو تخلّف . وما يملك إنسان أن يناقشه ، فما للريبة إليه سبيل . وما أقدره على تبرير ما يفعل وأقواه على أن يحتال . وارتاحت الزوجة الى الأم وحديثها عنه ، فلم تخش شرّاً ورضيته على حاليه فعاشت هادئة بعض الشيء ، إذا ما فزّعها خاطر ذكرت ثقة الأم بابنها فعادت مطمئنة .

ويَسراح خليل الى البيت أسبوعاً فيأوي إليه مع الغداء، ويعود إليه مع العصر فلا يبرحه . فتشيع الغبطة في نفس الزوجة ، وتتيه الأم زهواً بصدق حدسها . وتجري الأمور رخاء لينة . لولا ما بخليل من وجوم وبلبلة .

وفي صبيحة يوم والكل الى المائدة يطعمون سُمعت على السلم خَفقة لقدم ، تبعتها قرعة خفيفة على الباب ، قامت لها الزوجة ناهضة ، فألفت على الباب سيدة تذكر اسم زوجها فظنتها أُمًّا تسعى في شيء يخص ابناً لها في المدرسة ، فهشت للقائها، وأذنت لها في الدخول . وجزع الزوج وحاول أن يقول ، وكانت السيدة الوالجة أسرع منه إلى القول . فعرفت الأم أن ابنها زوج لثانية ، وأنها هي تلك ، فخجلت . وعرفت الزوج المقيمة أن لها ضرّة فانكسرت ، وعرفت الزوجة الجديدة أنها ثالثة الأثافي فهلعت .

*

ولم يجد الزوج ما يخافه فجعل وقته قسمة بين البيتين، غير أنه وجد في البيت الجديد سعة من لهو ومتاع ، سنحدثك حديثه بعد حين ، فخصه بالكثير من وقته وماله وعطفه. فآذى بذلك نفساً لم تجد في قوس صبرها منزعاً ، فبرمت ثم شكت . فعدَّ ذلك عليها خروجاً على الأخلاق، وكفراناً بالنعمة . فزادها هجراً . ولم يكن يملكها إلاَّ أن ترحل إلى أهلها فرحلت . وما استقرَّ بها المقام هناك أياماً ، حتى رأت كلمة الزوج في أمرها يحملها إليها البريد . فعلمت أنه لا يود لها رجعة فحزنت، وأضرَّ بها الحزن، فأورثها علة فقدت معها عقلها، وضاق بها أهلها فحملوها الى المستشفى تاركين إلى الله مصير أمرها .

*

لقد برَّت الزوجة الجديدة بما آلت وأغمضت عينيها على استخذاء، وتركت لزوجها يجلس الى أختها لتضمن ذَهَبَه . وحَسْبُها ذلك الأسبوع الذي غاضبها فيه .

ذلك بيت فقد عائله ، أنضمَّ على فتيات ثلاث وأم ، كبرى الفتيات تلك التي وصل خليل حبله بحبلها حين لقيها بين يدي صائغ تبيعه قرطها . وقد تحدث اليها وتحدثت اليه وتحركت نفسه لعونها ، فأكبرت وجدانه . وشفع البر ببرٍّ حين طرق عليها الباب في اليوم الثاني يحمل الكثير مما لا تغنى عنه البيوت . وقد مهَّد بالذي فعل السبيل إلى أن يلج البيت ، فولجه زائراً ولم يغادره إلاَّ زوجاً . وقد كشف لهم عن عذره في رغبته أن يظل الأمر سرًّا ، فقبلنه . فالفتى كما بدا نبيل، ومع العوز الحياء والخجل .

ولكن شيئاً لا تغفل عنه الزوجة ، هو حرصها على أن ترى زوجها لها ، فلما رأت لأختها منه نصيب ثارت . فجازاها على ثورتها بغضبة دامت أسبوعاً . وخافت الزوجة أن تطول إلى لا رجعة فسعت اليه ، فعرفت جديداً من أمره وكانت على أن تغضب . ولكنها ذكرت فقرها وتركت الحكم له . وعرف هو ضعفها فرضي أن يعود اليها ، وبسط في البيت يده فأغناه ، وعونه الواسع فكفى الجميع شراً كُنَّ على أن يصلينه.

والتفتت الزوجة إلى أختها تحذرها ولم تلتفت الى الزوج تزجره . وباتت لا توجس في نفسها خيفة فقد احتاطت للأمر بما فعلت .

وما كان في خلق الفتى أن يجترح إثماً ، أو يأتي الأمور إلاّ من أبوابها . فمضى يبذل لها الأماني ، والفتاة ترى في إجابته عقوقاً بأختها ، وعاراً سوف يتعلق بأذيالها . فانقلب ينذرها بالسوء ويكشف لها عن مستقبل أسود ، فما ألان لها عوداً . فظهر لها في ثوب الواله الدنف فانكسرت أمام سلطان الحب بعض الشيء وراح يشكو لها ما يعاني وما يضنيه فرثت له وبكت همّه . وخلا بها يوماً فأبان لها عمّا فعل ، وأن أختها منه بائنة ، إذ من الظلم لنفسه أن يضم الى جنبه من لا يحب . وأنه سيودّع البيت بمن فيه ما دامت هي لم تستجب له . وازدحم رأس الصغيرة بالبلابل وحسبت نفسها مع الخير حين صحبته يوماً الى بيت بمعزل ، فتمضي بيمينها قبوله لها زوجاً .

* * *

خفّ سكان الحي المجاورون مساء ليلة الى سرادق أقيم قبالة ذلك البيت الذي حلّ فيه « خليل » منذ عامين يواسون في ركن منه رجلاً متهدماً ، كان للفتيات عمّا . وإذا ما التفتوا الى اليمين وجدوا « خليلاً » في حلته السوداء واجماً ، فمال إليه فريق وصدف عنه فريق .

أمّا لمن أقيم السرادق فلايهولنّك أن تسمع أنه كان لاثنتين احتدم بينهما شجار ، واستطالت يدّ الكبرى فيه فقذفت أختها بمصباح الغاز ، وأخطأت حين همّت بنجدتها ، فالتهمتهما النار معاً .

*

ولا يزال خليل على بقية من القوة ، ولا يزال يرى أنه مهيض تعس . ولا يزال يرى أنه عفّ وهو فيما يفعل يحمي أفعاله بسلطان القانون ، ويستظل بظله . وما بنا أن نلاحقه الى غاية الشوط . وبودنا لو ضاق القانون فضيّق على أمثاله فحمى من عبث ودفع من شر .

ابراهيم الابياري

# الموج

يا مصر حياك بالورد الحيا المطل    وازدان بالدر رطباً جيدك العطل
وزانك النيل فاخضرّت بأبيضه    حمر البطاح عليها الحلي والحلل
والطلّ ينثر درّاً فوق سندسها    يحلي به العاطلان القصر والطلل
والشمس توقد شمعاً من أشعتها    لها على كل غصن زاهر شعل
فالنيل من فضة والشمس من ذهب    بحر من النور طام فلكه الأمل
بحرٌ من النور والنوّار لؤلؤه    أضحى من القمر فوق الموج ينتقل
تقبل الشمس منك الوجه كل ضحى    فتودع الورد محمرّاً به القبل
ولؤلؤ الغيث تبر الترب صيره    زبرجداً تجلاه الوهد والجبل
والسحب نسج حرير والصبا جلم    تخاط منها لاعراس الربى الكلل
فأرض مصر سماء الأرض زينها    نجم الزهور له نجم السما مثل
وفي سمائين بحر فيه منعكس    شكل النجوم وبر نجمه الدغل
فالبحر في طرف والبر في طرف    يا حسنها أن تناجي النوق والجمل
ومصر جنة أهل الأرض ناضرة    يجري من النيل فيها الخمر والعسل
خمرٌ اذا شربته الأرض أسكرها    فكل ما أخرجت من ناضر ثمل
سكرى وأقداحها القداح يترعها    راح الدجنة صرفاً حين ينهمل
راح حستهُ بنات الروض حاملة    كؤوس زهر فمنها العل والنهل
والريح تلعب بالأقداح ضاربة    بعضاً على البعض والأغصان تنتضل
أجنــةٌ أم عرينٌ أم بسيط وغى؟    والنجم والشجر والأسياف والأسل
وفي العرين أبو الهول الذي عجزت    عن أن تزحزحه الأقدار والدول
وهذه مقلتي تاقت الى شرف    أدنى ذراه بأعلى العز متصل
فهل سبيل الى مصر فتحملني    فيها متون الفضالا الأنيق الذلل
تجري على فلك العلياء طائرة    الى العلى بفتى ضاقت به السبل
تحطني في ربى مصر فترفعني    الى ذرى دونه الأطواد والقلل

( طهران )    **عباس الخليلي**

# الذهب (١)

## تاريخه ، استخدامه ، أمراضه

يوجد الذهبُ كثيراً في بقاع الأرض ، بشكله المعدني حيناً ، وممزوجاً بمعادن أخرى حيناً آخر . وهـذه المعادن هي الفضة والنحاسُ والحديدُ وغيرها . وهو يوجد بين الصخور المعروفة باسم Quartz وبين الرمال . وطبيعيٌّ أن الذهبَ الذي يوجد بين الرمال كان قبلاً بين الصخور التي تفتتت بتأثير الأنهار أو السيل ، فتحللت الى رمال حيث هذا المعدنَ النفيس . والذهب يوجدُ بمصرَ في هاتين البيئتين . وبالنسبة لسهولة معرفته واستخراجه من بين الرمال ، فإن قدماء المصريين تعرّفوه واستخرجوه منـذُ أقدمِ العصور . ويتشرفُ النحاسُ بأنه كان أول المعـادنِ تداولاً في التاريخ الفرعوني ، ويتشرف الذهبُ بأنه كان ثاني هذه المعادنِ . ولما كان استخراجُ الذهبِ من الرمال أسهل مراساً من استخراجه من بين الصخور ، فان أجدادَنا بدأوا هذه العملية في المناجم الرملية

وأهم مناطق الذهب بالقطر المصري ، هي الواقعةُ بين وادي النيل والبحر الاحمر . وبالأخص الجزء الذي يحدّه شمالاً الخط بين قنا والقصير ، وجنوباً حدودُ السودان . ومع ذلك فإن مناجم الذهب الفرعونية ، وجدت شمال هـذه المنطقة بمسافة بعيـدة كما وجدت جنوبها حتى دنقلا . وطبيعيٌّ أن هـذا الأقليم هو المعروف الآن باسم نوبيا وقبلاً باسم أتيوبيـا . ولم يعثر على الذهب بشبه جزيرة سيناء ، على الرغم من أن الظروف الطبيعية والجيولوجية هناك تساعد على تواجده . وهناك بعض الإشارات الى جواز العثور على الذهب بتلك المنطقة قديماً ، ولـكن ليس بصفةٍ قاطعة .

ويقال إن المساحة التي بحث فيها أجدادُنا عن الذهب بالصحراء الشرقية ، هي نحو ئة ميل مربع ، وأن الأراضي هناك قلّبت بعمق مترين تقريباً . والمعروف أن العرب

---

(١) محاضرة للدكتور حسن كمال بك مدير عام مصلحة الصحة الاجتماعية بوزارة الصحة

حاولوا استخراج هذا المعدن النفيس أيضاً ، بعد استيطانهم للقطر المصري .

أما استخراج الذهب من بين الصخور ؛ فإن محاولات المصريين لها بلغت المائة عملية .

ومهما كانت منابع الذهب المستخرج في مصر سواء كان ذلك من بين الصخور ، أو من بين الرمال ، فإن قدماء المصريين كانوا يستخرجونه تامًّا دون ترك أثر له.

وهناك نصوصٌ تاريخية تشير الى استجلاب الذهب من السودان . أما استيراد هذا المعدن من البلدان شمال القطر المصري ، قبل الأسرة التاسعة عشرة فلم يثبت للآن .

وأهمّ مناطق الذهب في مصر القديمة هي : —

في الجنوب . في الأسرة الثانية عشرة ( قفط والنوبيا ) ، وفي الأسرة الثامنة عشرة ( قفط — كوش — والصومال ) ، والأسرة التاسعة عشرة ( السودان والصومال ) ، والأسرة العشرينية ( ادفو — كوش — السودان — كوم امبو ) .

في الشمال . في الأسرة التاسعة عشرة ( ليبيا ) ، والأسرة العشرينية ( آسيا ) وأقدم خريطة جغرافية في العالم ، هي الموجودة حالياً بدار تحف ( تورين ) تمثل اقليم استخراج الذهب في مصر الفرعونية بصحرائها الشرقية . ويرجع تاريخ هذه الخريطة الى عهد الملك سيتي الأول ( أسرة ١٩ — ١٣١٣ — ١٢٩٢ ق . م ) .

﴿ تعدين الذهب في العهد الفرعوني ﴾ . طريقة فصل الذهب من الرمال عند قدماء المصريين كانت بسيطة تتلخص في غسل الرمال بالمياه ، فتجرف الرمال بتيار الماء تاركةً ذرات الذهب أو كُتَله الصغيرة راسبةً بفضل ثقلها . ثم تُصهر هذه الذراتُ الى كتل .

أما طريقة استخراجهم للذهب من الصخور ، فقد وصفها الكاتب اليوناني اجاثارشيديس Agatharchidis في القرن الثانى بعد الميلاد ، الذي زار تلك المناجم ولو أن هذا الوصف فُقد إلاَّ أنَّ المؤرخ ديودر الصقلي أورد منه صورة كاملةً . فالصخور الصلبة كانت تكسر بالنار كتلاً كبيرةً . وهذه كانت تُفتتُ بالآلات اليدوية الصغيرة . وبعد التفتيت كان القوم ينقلونها الى خارج المنجم ، حيث تطحن في أهونةٍ الى حجم الفول ، ثم في طواحين الى مسحوق ، وبعد ذلك يغسل المسحوق على سطحٍ مائلٍ لفصل الأتربة بطريق الجرف مع تيار المياه ، وترسيب الذهب بفضل الثِّقل . ثم تصهر الذرات الذهبية الى أحجام كبيرة .

وأجود أنواع الذهب الفرعوني كان يحوي ذهباً خالصاً بنسبة ١ و٧٢ ٪ ( ١٧ قيراطاً ) الى ٨ر٩٩ ٪ ( ٥ر٢٣ قيراطٍ ) ومع ذلك فقد وُجد ذهب كان يحوي من المعدن النفيس ما يقرب من ١٣ ، ١٢ ، ٩ قراريط .

وذكر توماس Thomas ان الذهب المصري الحالي يحوي ذهباً خالصاً بنسبة ٠ر٨٤ ٪ ( ٢٠ ) قيراطاً إلى ٣ و٩٠ ٪ ( ٥ر٢١ قيراطٍ ) وان الشوائب التي به لا تتعدّى معدن الفضّة . ولكن لُوحظ بين الشوائب معدنا النُّحاس والحديد .

﴿ نقاوة الذهب ﴾ يظهر من نتائج التحليل الكيميائية الحديثة ، إن الذهب الفرعوني لم يُنقّ نقاوةً تامّة إلاّ في العهد الفارسي ( ٥٢٥ — ٣٣٢ ق.م ) ولو ان النصوص المصرية القديمة في عهد الأسرة العشرينية ( ١٢٠٠ — ١٠٩٠ ق.م ) ذكرت عبارة « الذهب المكرر مرتين » و« المكرر ثلاث مرات » مما يشير الى محاولة نقاوته على دفعات إلاّ أن الذهب الذي عُثِرَ عليه في تلك العصور ، لم يتعد ما سبق أن ذكرناه سابقاً .

وفي القرن الثاني بعد الميلاد ذكر إجاثارشيديس ( Agatharchidis ) تكرير المصريين للذهب ، بصهره مع الرصاص والملح والصفيح وردة الشعير ، ولم يرد في وصفه طريقة فصل شائب الفضة من الذهب .

وابتداء من الأسرة الثامنة عشرة بدأ القوم يضيفون النحاس الى الذهب في الصياغة ، كما يشاهد ذلك في خواتم تلك العصور . وقد بلغت النسب في أحد هذه الخواتم ٢٥ ٪ ذهباً و ٧٥ ٪ نحاساً .

﴿ صناعة الذهب — الصياغة ﴾ والمصوغ الذي عُثر عليه بمقبرة الملكة حتب هيريس ( Hetep Heres ) أسرة رابعة يدلّ دلالةً قاطعة على منتهى ما وصلت اليه هذه الصناعة من الاتقان في تلك العصور السحيقة . أما المصوغ الذي عُثِرَ عليه في دهشور واللاهون ، من عهد الأسرة الثانية عشرة ، وأيضاً في مقبرة توت عنخ آمنون ( أسرة ١٨ ) فيفوق في اتقانه كل وصف . وما أكثر الصور التي تُمَثِّل صناعة الصياغة على جدران مقابر أجدادنا مثل مقبرة (تي) بسقارة ( أسرة ٥ ) ومقبرة ( ميرا ) بسقارة أيضاً ( أسرة ٦ ) ومقبرة بني حسن ( أسرة ١٢ ) ومقبرة ( رخمارا ) بطيبة ( أسرة ١٨ ) .

الى هنا انتهى تاريخ هذا المعدن النفيس في مصر الفرعونية. والآن ننتقل الى الوضع الحديث.

سبق أن ذكرنا ان الذهب يوجد عادةً في الصخور ( Quartz )، وبين الرواسب الرملية، ويفصل المعدن عن الرمال باستعمال تيار الماء، الذي ينقل الرمال ويترك الذهب في قاع المجرى. وبعد جمع هذا المعدن بالطريقة المذكورة يُحضَّر نقيًّا بعدة طرق أكثرها استعمالاً هي مزجه بملح سيانيد البوتاسيوم أو الصوديوم فينجم سيانيد الذهب وهذا يفصل بالتحليل الكهربي ( Electrolysis ) حيث يتراكم الذهب على القطب السالب.

ويوجد الذهب في منجم السيد بقفط ومنجم السكري في مرسى عالم ومنجم الذهب في البرامية، بين القصير وادفو. فاما منجم السيد فتديره شركة مساهمة منذ عام ١٩٤٤ واستطاعت أن تحصل منه في عام ١٩٤٨ على ٢٩٥٠ أوقية بلغ ثمنها ٦١٠٠٠ جنيهاً وبه ٢٢٠ عاملاً.

وأما منجم السكري فقد استخرج منه ٢٠٧٦٢ أوقية من الذهب الخالص، منذ سنة ١٩٣٧ الى سنة ١٩٤٧. وقد بيعت بمبلغ ١٢٧٢٠٩ ج على حين بلغت المصاريف في هذه المدة ٢٩٦٤٢٠ ج. وأما منجم البرامية فقد استولت الحكومة عليه في أوائل الحرب العالمية الأخيرة من مديره الايطالي ولم تقم بادارته. وأخيراً رخصت للنائب المحترم عبد الملك حمزة بك بادارته.

ويستخرج الذهب حالياً بثقب الصخور أولاً، ثم نسفها بمادة جليجنيت Gelegnite ـدها تنقل في عربات تجرها الأيدي. وكان هناك خطران يلازمان هذه الصناعة. أولهما لتسمم بالسيانيد ( سيانيد الصوديوم الذي يستعمل عادةً لاذابة الذهب من فتات الصخور) ـكن معرفة طريقة التسمم به، حددت كثيراً من حوادثه. وثانيهما التسمم بالزئبق الذي ستعمل كالسيانيد في استخراج الذهب من فتات الصخور. ويحتوي سيانيد البوتاسيوم لى ٤١ ٪ من حامض الايدرو السيانيك. ويستعمل في الطلاء الكهربي ( Electro-plating ) التصوير الشمسي. ولكن أستعيض أخيراً بسيانيد الصوديوم، لرخص الأخير. ويحدث يانيد البوتاسيوم تأثيره السيء في الجسم اذا ما تعرض جرح أو قرحة جلدية للجوهر. قد حدثت فعلاً حوادث كثيرة من هذه الناحية.

أما سيانيد الصوديوم فكثير الاستعمال في التعدين والطلاء الكهربي ودبغ الجلود وصناعة الألوان الخ .. كما يستعمل كمصدرٍ لاستخراج حامض الايدرو السيانيك لعملية التبخير . وطبيعيٌّ ان كل هذه العمليات تصحبها حوادث تسمم .

وحامض إيدرو السيانيك وأملاحه من أشد السموم . فهو سمٌّ للبرتوبلازم، ولذا فهو يقتل بشل المجموع العصبي وتأثيره المباشر على قوة القلب . وبكميات صغيرة جداً يحدث تهيج الأعصاب في الجسم . ويقف حامض الايدرو السيانيك وأملاحه حائلاً دون عملية التنفس، وذلك بمنع مادة (Cytochrome) من القيام بوظيفتها وهي نقل الاكسيجين الى الأنسجة وتهيئته للتنفس . لذلك نجد في حالات تسمم السيانيد ان الدم يكون أحمر قانياً لعدم مغادرة غاز الاكسيجين منه . وان الدم الوريدي قد يحوي من الاكسيجين كمية تقرب من كميته في الدم الشرياني . ومن الجائز أن وقف عملية تبادل الاكسجين بالجسم هي سرُّ سم الجوهر . وان سرعة الوفاة حينذاك نتيجة وقف هذه العملية في مراكز الجسم الرئيسية .

وتحدث الوفاة من استنشاق غاز الايدرو السيانيك إذا وجد في الهواء بنسبة ٠٥ر٠ في الألف . أما إذا تعاطاه الشخص فانه يقتل اذا بلغت كميته من ١ — ٥ ملليجرام لكل كيلوجرام من وزن الجسم .

أما سيانيد البوتاسيوم فقد يحدث الوفاة للانسان في ظرف ربع ساعة اذا تعاطى الشخص خمس قمحات ( أي حوالي ٣٠ر٠ جرام ) . والتسمم بأملاح السيانيد ينجم من سرعة احداث حامض الايدرو السيانيد في المعدة بتأثير العصير المعدي . ولكن ذلك يترتب أيضاً على كمية الطعام بالمعدة .

وفيما يلي حادثة تسمم من حامض الايدرو السيانيك معتبرة مرجعاً في الطب الشرعي ذكرها (سيدني سميث في كتابه ص ٦٨١) واردة على لسان طبيبها واضحة بها أعراض التسمم

في ٤ نوفمبر استدعيت فجأة لعلاج آنسة . وبعد بضع دقائق وصلت منزلها فوجدتها ملقاة على الأرض تتنفس تنفساً عميقاً، وهي فاقدة الشعور متشنجة، متمددة حدقتي العينين، باردة الجسم، عديمة النبض . وأخبرتني أمها أن الآنسة صعدت الدرج، لتغير ملابسها، وتحمض بعض الأفلام الشمسية . وعلى أثر ذلك سمعتها الأم تصيح أماه — أماه

ثم تسقط تواً على الدرجات متشنجة متقايئة . ولوحظت رائحة اللوز الشديدة في نفسها وقيئها . فاستنتجت أنها سممت نفسها بطريقة ما ، بملح سيانيد البوتاسيوم أو حامض الايدرو السيانيك . وبالسؤال اتضح انها كانت في كامل صحتها قبل الحادثة بنصف ساعة

قال الطبيب : فنقلت الآنسة الى الفراش ، وحقنتها بمقدار $\frac{١}{١٠٠}$ قمحة دجتالين ، $\frac{١}{٥٠}$ قمحة استركنين ، وشفعت ذلك بحُقنتين من الكونياك ، وبدأت في عمل التنفس الصناعي مع التدليك العام . ولاحظت بعد مدة قصيرة أن النبض بدأ يظهر خفيفاً في المعصم . ثم داومت في اسعافها بالكونياك وزجاجات الماء الساخن ، وحراقات الخردل فوق منطقة القلب ، الى أن استفاقت قليلاً على أن تنتكس حالتها الى ما كانت عليه عدة مرات بعد ذلك فقد تقيأت مرات عديدة كما تشنجت تشنجات متوالية . وكانت حدقتا العينين متمددتين طول المدة . ولم يسترجع رشدها تماماً إلاَّ بعد مرور ثلاث ساعات من الحادثة . بعدها رجعت الى حالتها الطبيعية تقريباً اللهمَّ إلاَّ بعض الغثيان والدوخان .

وبالبحث في حجرتها لوحظت قطعة كبيرة من سيانيد البوتاسيوم ، وبجوارها مدية ، كانت تستعمل للحك ، قصد الحصول على بعض المسحوق من هذا الملح . أما كيف تمكنت من نقل بعض هذا المسحوق الى فمها فقد عجزت عن شرح ذلك تماماً . لأنها لم تتذكر شيئاً عن الحادثة ، بالرغم من أن هناك ما يدل على حصول فترة صغيرة كانت فيها محتفظة برشدها بدليل اندفاعها الى خارج الغرفة وصياحها طالبة النجدة

أما أعراض التسمم البطيء بحامض السيانيك أو أملاحه فتتلخص في إحساس بالاختناق ودوخان واضطراب الذاكرة ، وآلام بالرأس ، وزيادة في ضربات القلب ، وصعوبة في التنفس . ويفقد الانسان رشده تدريجاً . فاذا ترك ولم يسعف مات من وقف حركة التنفس .

أما اسعاف هذه الحالات ، فيتلخص في تفريغ المعدة بالمقيئات أو بالغسيل ، وعمل التنفس الصناعي ، والتدفئة الخارجية للجسم ، وحقن الأثير ، واعطاء الكونياك ، بالفم أو المستقيم ، وتدليك الأعضاء . ولا فائدة من استنشاق غاز الأكسيجين . لأنَّ الدم الشرياني والوريدي متشبعٌ به . ويصف البعض جوهر الأتروبين والكارديازول بحجة تنبيه مركزي التنفس والدورة الدموية . ولكن ذلك لم تثبت فائدته .

ويقال إن اعطاء الجلوكوز يقلل كثيراً من تأثير حامض الأيدرو السيانيد وأملاحه على الجسم. وقد استدلّ بعضهم على ذلك بأن محاولة تسميم «راسبوتين» في ١٦ دسمبر سنة ١٩١٦ بوضع حامض الايدرو السيانيك في نبيذ له قبل تعاطيه بثلاث ساعات، لم تحدث تأثيراً مرضيًا على الشخص، بحجة أن السكر الموجود بالنبيذ وقتئذٍ أضعف الى حدّ بعيد قوّة الحامض السامة. وكانت هذه الحادثة في وليمة أقامها له عدّة شخصيات روسية كبيرة. فلما لم يفلح سيانيد البوتاسيوم قتل راسبوتين رمياً بالرصاص.

أما سيانيد الزئبق ( Mercury Cyanide ) فسامٌ. ويستعمل بكثرة في استخراج الذهب. ولا تقل سمية هذا الملح عن سمية السليماني، ولو أنه لا يحتفظ بقوّة التآكل ( Corrosive Property ). وليلاحظ أن الزئبق معدنٌ يصل الى الجسم بطريق الجلد السليم، كما يصله بطريق الغذاء والاستنشاق. وأن التسمم به في عملية استخراج الذهب قد يكون سريع المفعول أو بطيئه حسب الظروف. فاذا كان استنشاق الهواء الحاوي لبخار الزئبق أو لأتربة أملاحه هو وسيلة التسمم، كانت الأعراض بطيئة الظهور. وهذه تتلخص في مغص وغثيان وقيء وضجر وانقباض نفساني. بعد ذلك تنتفخ الغدد اللعابية وتتألم، ويحمر لون اللسان واللثة ويتقرحان وتنتن رائحة النفس. ثم يشتكي المريض بصعوبة في الابتلاع، ثم يظهر على اللثة خط أزرق. وتصاب الأمعاء باسهال ويعتري الشخص صعوبة في التنفس وسعال ورعشة عامة وحركات تقلصية في الأطراف، وأعراض بعض الشلل، وقد ترتفع حرارة الجسم قليلاً وينحف ويسيل اللعاب كثيراً.

ويسعف المصاب بإفراغ المعدة، وتناول اللبن، ويلتفت الى الكليتين، وغير ذلك، مما يقع في دائرة عمل الطبيب. وأهم مادة استنبطت لعلاج التسمم بالزئبق والذهب والزرنيخ، هي مادة B. A. L. (British-Anti-Lewistie) التي كانت تستعمل أولاً في علاج التسمم بغاز (اللويسيت). وهي عبارة عن مادة ( 2,3-Dimerc aptopropanol ) مذابة بنسبة ٥ ٪ في زيت الفول السوداني الحاوي لمادة ( Benzyl Benzoate ) بنسبة ١٠ ٪. وهو موجود بالسوق بشكل أنابيل ٢ سم$^{٣}$ وتقدمه شركات مثل ( Boots )

وبالنسبة لعمق مناجم الذهب فان الضغط عليها من الخارج يكون شديداً، فتتداعى

جدرها ويسقط تحتها عدد من العمال . وقد أدخلت تحسينات كثيرة في صلب المناجم وطريقة فصل الذهب .

وأهم الأمراض الأخرى التي تصيب عمال الذهب هي الالتهاب الرئوي والسلكوزيس ( Silicosis ) والدرن ، والانكلستوما ، والاسقربوط ( قلة فيتامين ج )

وتمنع الاصابة بالانكلستوما برش ملح الطعام في أرض المراحيض وداخلها . وغسل المقاعد والجدران مرة في الاسبوع بمحلول الملح في الماء بنسبة ( ٢٠ ٪ ) .

ويمنع مرض السلكوزيس ( Silicosis ) والدرن الرئوي باستعمال المياه ووسائل التهوية. وعليه فيجب استعمال المياه في كل عملية تنقيب . كما يجب بلّ قطع الصخور قبل نقلها بالمياه . ويتحتم أيضاً رش المياه على جدر المنجم باستمرار . ووقت النسف تذرّ المياه في الهواء بشكل نوافير ، تفصل بين موضع النسف ومكان العمال . على أن تستمر هذه النوافير لحين زوال كل الأبخرة والأتربة بالغسيل . ولما كانت المياه غير كافية لمنع ذرات الصخور التي تسبب مرض (السلكوزيس) فان تهوية المنجم ضرورية جداً . وتعمل عملية النسف بعد ابعاد كل العمال ، حتى القائم بعملية النسف وذلك باستعمال آلات ناسفة خاضعة للتوقيت ( Time fuses ) والتهوية ضرورية لخفض درجة الحرارة داخل المنجم . وتعمل التهوية بوضع الشافطات عند مدخل المنجم وارسال الهواء تحت ضغط داخل المنجم بوساطة انابيب ( Venture tubes ) ويلزم وضع الترمومتر ذي المخزن الجاف والرطب (Dry & wet bulb Thermometer) وقياس كمية ثاني اكسيد الكاربون باستمرار داخل المنجم .

ويشترط أن تكون بكل جهات المنجم وسائل الاسعاف متوفرة . وهي عبارة عن صندوق معدني يحوي كل الأربطة والأجهزة والعقاقير ونقالة وبطانية الخ . . . وان يمرن كل موظف وعامل نبيه على استعمالها .

ويستحسن الكشف طبياً على كل عامل قبل التحاقه بالمنجم واعطائه شهادة بجودة صحته وخلوه من الأمراض . وان يعاد هذا الكشف على فترات . وان تستعمل الأشعة السينية في الكشف . وكل عامل يقل وزنه يعزل لفحصه طبياً . ويفضل في المناجم الكبيرة انشاء مستشفى صغير مجاور .

ويشترط في الغذاء ان يكون كاملاً . ويعطى فيتامين (ج) في مرض الاسقربوط أقراصاً أو بشكل عصير برتقال .

ولو أن تعدين الذهب لا يشمل التسمم بأحد الغازات الا أن جواز حصول انفجار مادة النسف داخله أو احتراق خشب أو خلافه يتطلب الاحتفاظ بأسطوانة اكسيجين لاسعاف الاختناق . الى هنا انتهى ما أردنا سرده عن تاريخ استخراج الذهب الحديث في مصر وأمراضه

وقد تبين ان كمية الذهب المستخرجة من مصر الآن ضئيلة ، وان تكاليفها باهظة ، على عكس ما كانت عليه أيام أجدادنا . لذلك رأيت قبل أن أختتم هذه الكلمة ان أشرح بعض جهود الفراعنة في استخراج هذا المعدن وكميته وقتئذٍ ومقدار تداوله : —

والآن نرجع هنيهة الى التاريخ القديم فنقول ان Prisse Davin بريس دافين عثر بجوار كوبان على الشاطىء الشرقي من النيل أزاء مدينة « دكة » على لوحٍ حجري نقوشه دالة على ان الملك رمسيس الثاني استخرج معدن الذهب من جبل علاكي وهو يبتدىء بعبارات خاصة بتقديم القرابين كأمثاله من الأحجار . ثم يشتمل على ٣٨ سطراً من النقوش . وفيما يلي ملخص ترجمته وهي وصف شامل لحالة العمال القديمة في استخراج الذهب : « في الرابع من طوبة من السنة الثالثة لتولية حضرة ملك الأقاليم « رمسيس الثاني » .. بينما كان بمدينة منف يقدم واجب الشكر للمعبودات على ما أولوه من الشهامة والنصر وطول العمر ..... وكان حينئذٍ جالساً على عرشه الكبير المصنوع من الذهب ومتوجاً بالتاج المتوج بالريشتين ومتصدراً لإعطاء الأوامر ونشرها في البلاد التي كان يجلب منها الذهب ومشتغلاً بأمر احتفار آبار في الطرق الخالية من المياه بعد ما طرق مسامعه الشريفة ان الذهب موجود بكثرة في جهة تسمى « اكيتا » إلاّ أن المياه معدومة بالكلية « ولعلّ اكيتا هي المعروفة الآن بجبل « علاكي » . وكان من المتعذر استخراج الذهب لعدم المياه بالكلية . وكانت هذه الشكوى مرفوعة لسدته من رؤساء الاقليم ومشفعة بمساعدة أمين « اتيوبيا » فافتتحوها بتجبيله . ثم التمسوا من سدّته ان يحتفر لهم البئر في الجبل الآنف الذكر . وانهوا اليه ان النجاح في هذا المشروع لا يتم إلاّ اذا تضرع للنيل المقدس . فقبل منهم رمسيس هذا الالتماس واستغاث بالنيل فأجاب دعاءه وقبل دعواه . وعليه نبع الماء من الجبل وعرف

البئر باسم « بئر الملك رمسيس » وقد سبق القول بأن هذا الحجر لم يوجد بموضع استخراج المعدن، بل وجد بجوار قلعة كوبان التي تتصل بها وديان صحراء «عتباية». وكانت هذه القلعة مشادة لصد هجوم أهل البادية على وادي النيل. وللمحافظة أيضاً على معادن الذهب. لأن وادي « علاكي » يبتدىء على مقربة من (كوبان) ويمتد شرقاً الى البحر الأحمر. فهو طويل متعرج. ويسكن « العتباية » قبائل البشارية وفيها عروق الذهب. ومن ضمن وديانها وادي شوانب، والجبل الأسود، وجبل أم كبريت، وأم الطيور الخ . . . وابتدأ استخراج الذهب منها في عصر العائلة الثانية عشرة. واستمر بعد ذلك في عهد الفراعنة، الى عهد البطالسة الى القياصرة، الى الخلفاء. وقد وجدت لهذه الأراضي الذهبية خارطة مرسومة على ورقة من البردي، جعل فيها لون كل مكان يقرب من لونه الطبيعي. وهي الآن محفوظة بمتحف تورين كما سبق أن ألمعنا. واليك بيانها :

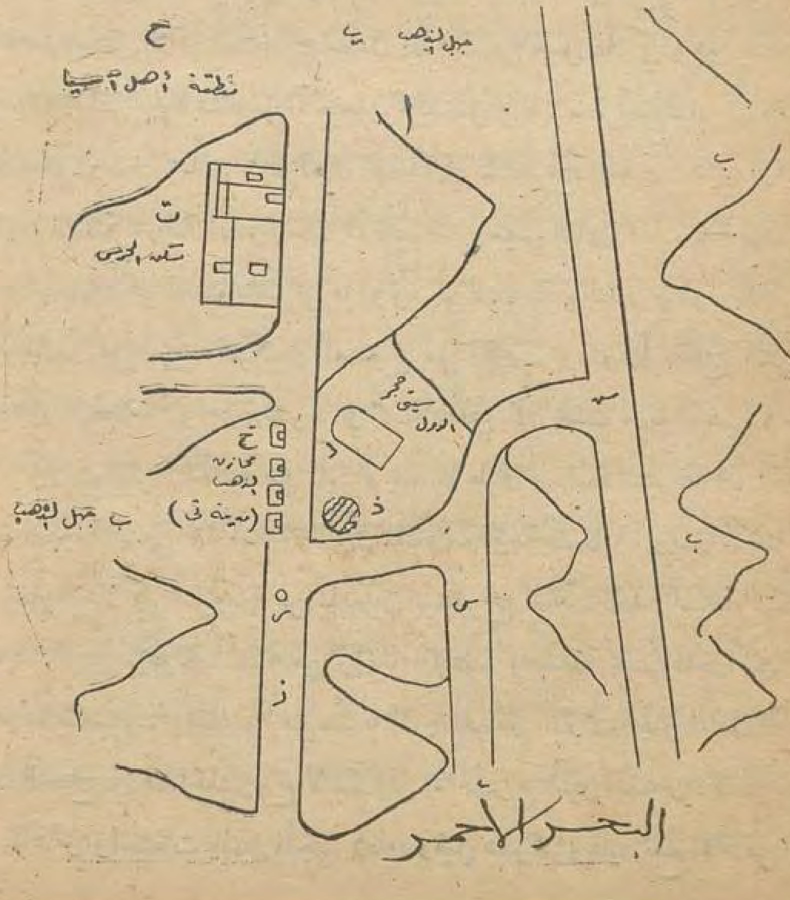
ح
جبل ذهب ي
ا
ب
ت
مسكن الحرس
بيت حجر
الدول
د
خ
مخازن
بيوت
(مدينة ق)
ب جبل الذهب
ذ
ر
س
ب
ز
البحر الأحمر

قال الأستاذ «شأبلس» انه لم يوجد من هذه الخريطة القديمة الاّ نصفها . اذ يظهر أن القطعة المؤشر عليها في الرسم بحرف «ا» هي نصف الورقة . ومن الكتابة الموجودة في هذه القطعة يفهم انها خريطة لمنجم الذهب لكونها تفيد — جبال الذهب التي يستحضر منها الذهب — وهي ملونة في الرسم بالأحمر — ومكتوب في مواضع الحرف (ب) عبارة جبل الذهب . وفي الموضع المؤشر عليه بحرف (ت) عبارة (محراب أمون) وهو مبني على قارعة الطريق الأصلي . وفيه قاعتان ، لعلها كانتا مسكناً لحرس هذه المنطقة . وفي المكان المؤشر عليه بحرف (ج) نصوص معناها (المسكن المقيم فيه أمون) ويوجد عند (ح) نقوش معناها (أهل آسيا) وعند (خ) أربعة مساكن لبلدة سميت (تي) كان يودع فيها الذهب ثم يلي ذلك مكان حرف (د) محل اللوح الحجري الذي نصبه (سيتي الأول) جاء فيه أنه أسس هناك مصلحة لمعادن الذهب . وعند (ذ) بئر رسم فيه الماء وبجواره أرض سوداء رسم فيها الماء دلالة على كونها زراعية . وفي مجمع الطرق (ر) بئر ثان صغير جعل سبيلاً للمارين . والطريق الأصلي المؤشر عليه بحرف (ز) يستمر الى أن يتصل بالبحر كما يفهم من النصوص الموجودة به . ومثله أيضاً الطريق المؤشر عليه بحرف (س) . أما الطريق المؤشر عليه بحرف (ش) المنثور فيه محار البحر، فيسمى طريق (نيبامات) ، يظهر انه علم لرجل أجنبي . ووجود المحار فيه دليل على قربه من البحر .

***

وهذه أقدم خريطة في العالم جعلت للدلالة على معدن الذهب ، على مقربة من البحر الأحمر . وجاء عن الملكة (حمتشبسوت) (أسرة ١٨ — ١٥٨٠ — ١٣٥٠ ق . م .) انها قالت ما ترجمته : «أتذكر أني جلست يوماً بالقصر . وفكري يجيش بتأملات خالقي . فأوحى الى قلبي أن أشيد لخالقي مسلتين من خليط الذهب والفضة (Electrum) يبلغان عنان السماء «وقد كلفت المهندس المحبوب (سنموت) القيام بهذه المأمورية فتوجه الى محاجر الجرانيت ، جهة الشلال الأول ، لقطع حجرين كبيرين تصنع منهما المسلتان الكبيرتان . فجمع هذا المهندس من شاء من العمال ، وابتدأ بالعمل في أوائل فبراير من السنة الخامسة

عشرة من حكم جلالة الملكة . وبعد مضي سبعة أشهر ، تمكن سنموت من قطع الصخرتين المذكورتين وذلك في أوائل شهر أغسطس . وقد شحنهما في سفن نيلية الى طيبة قبل أن يهبط منسوب فيضان النيل . ورأت الملكة أن تنصب هاتين المسلتين في الساحة ذات العماد ، التي أسسها والدها بالكرنك والتى اختار فيها آمون تحوتمس الثالث ملكاً على مصر . وتطلَّب انجاز هذا العمل نقل عمد السقف المشيدة في الجناح الجنوبي للساحة المذكورة ، علاوة على أربعة عمد من الجناح الشمالي ، ونزع جزء من السقف وهدم الحائط الجنوبي ، لأدخال هاتين المسلتين . وكانتا مكسوتين بخليط الذهب والفضة .

* * *

ومما جاء عن ثروة هذه الملكة قولها إنها كانت تكيل المعادن النفيسة كالحبوب ، بالمكاييل الكبيرة . وهو قول يعززه ما رواه ( تحوتي ) بأنه كان يكدس بأمر جلالتها في ساحة قصرها ما يزيد على ٤٢٣ لتراً من خليط الذهب والفضة . وإليكم ترجمة ما قالته جلالتها مفتخرة بهاتين المسلتين : «لقد صنعت قمتي هاتين المسلتين من أجود خليط للذهب والفضة وجد في العالم . وكان من الممكن مشاهدة القمتين من شاطىء النيل . وكانت أشعة الشمس تنعكس منهما على القطرين وقت شروق الشمس على الأفق بشكل غاية في الجلال»

* * *

أما ارتفاع هاتين المسلتين فأعلى من سقف ساحة الكرنك التي شادها تحوتمس الأول . وقد أقسمت ( حعتشبسوت ) بكافة المعبودات ، ان كلتا مسلتيها صنع من حجر واحد منعاً لدخول الشك في أنفس القوم وقتئذٍ . والحق يقال أن هاتين المسلتين أعلى الآثار المصرية التي يرجع تاريخها الى تلك العصور لأن ارتفاع كل منهما بلغ حوالي ٩٧ قدماً ونصف قدم . أما زنة كل منهما فتقرب من ٣٥٠ طنًّا . ولا تزال احداهما شاخصة في مكانها الأصلي ، تسترعي أنظار السيَّاح كل سنة .

الدكتور حسن كمال

# الأساس الاجتماعي

## للأسلوب الأدبي

أسلوب الكاتب هو شخصيته المؤلفة من عاداته الذهنية وعواطفه الأخلاقية . ولسنا نقصد هنا بالطبع إلى ذلك الأسلوب الذي يحاكي به كاتب كاتباً آخر يتعوّد عاداته ، بل أحياناً يأخذ بعباراته وكلماته ، لأننا لا نجد هنا « شخصية » ، وإنما نجد محاكاة تحتاج إلى تكلف كثيراً ما يزيف المعنى ويفصل بين الموضوع وبين الأسلوب .

إنما نقصد إلى ذلك الكاتب الذي يكتب عفو نفسه ، كما يمشي أو يتحدث عفو نفسه . وصحيح أن هناك مجالاً لأن نتكلف الكمال أو الحسن في المشي أو الحديث ، ولكن بشرط أن لا يكون هذا التكلف محاكاة لشخص آخر، بل يكون مجهوداً لتحقيق غاية .

ونحن في حياتنا نتعوّد عادات الجسم التي نمارسها في الأكل والمشي وفي ألوان أخرى من النشاط . وأيضاً نتعوّد عادات الذهن في الاتجاه التفكيري والأسلوب المنطقي أو السيكلوجي الذي نتخذه في الحديث أو الكتابة .

وهذا الأسلوب السيكلوجي أو النفسي إنما يتكوّن بعواطفنا التي تحفزنا على التفكير ، وهي في هذا التفكير تبعثنا على اتجاهات معينة . وهذه العواطف هي مئة في المئة ، اجتماعية ، أي أن المجتمع بما يرسم لنا من أهداف ومثليات ، ننشأ على احترامها منذ الطفولة ، يربي في نفوسنا عواطف تحملنا على الغيرة أو الغضب أو الأسف أو الفرح . وقد يكون الأساس لهذه العواطف الإجتماعية طبيعياً ، كما نرى مثلاً في عاطفتي الجوع والجنس، ولكن المجتمع يصوغ لنا الأسلوب الذي نتخذه في التصرف بهاتين العاطفتين .

والميدان الأكبر الذي تتربى فيه عواطفنا هو الميدان الاقتصادي ، أي تلك العوامل التي تربط حياتنا بالإعتبارات الإقتصادية وطرق الإنتاج والارتزاق . وأخلاقنا ليست في النهاية سوى وجدان ينشأ من تصادم العواطف فيما نسميه الضمير . وعند ما نستقرىء

التاريخ نجد على الدوام أن الطبقة التي تتولى الإنتاج هي نفسها الطبقة التي تتولى الحكم ، ثم أخلاقها التي هي ثمرة البيئة الاقتصادية التي تعيش فيها وتتصل فيها بطرق الإنتاج والارتزاق التي رفعتها الى القمة ، بهذه الأخلاق تعم الحكومة ثمَّ تعم الشعب ، فأخلاقها هي الأخلاق السائدة وما تجد من فوائد لها في السلوك يعود فضيلة ، وما تجد من ضرر لها في السلوك يعود رذيلة .

ولكن الأمة ، كائنة ما كانت ، في نظام المباراة العام تنقسم طبقات للأغنياء والمتوسطين والفقراء . ولذلك تختلف الأخلاق ، لاختلاف العواطف الإجتماعية التي نشأت في بيئة الإنتاج والارتزاق ، اختلافاً يسيراً . ولكن هذا الاختلاف يكبر ، بل أحياناً يتضخم إذا تنبهت إحدى الطبقات وأصبحت على وجدان بمكانها . وقد وجدنا هذا الوجدان في طبقة النازيين من أصحاب المصانع والمزارع أيام هتلر حين تكتلوا وسنوا من القوانين ما يحمي نظام المباراة ويرد عنهم موجة الإشتراكية . وفي أيامنا نرى هذا الوجدان بين العمال في فرنسا ، فإنهم يتكتلون أيضاً ويحاولون إيجاد نظام أخلاقي جديد عن طريق التغيير للنظام الاقتصادي القائم .

والأديب هو اللسان الناطق الذي يعبر عن العواطف وينفح عن الأخلاق التي تنشأ في وجدانه الطبقي . فهو إذا كان ينتمي إلى طبقة الأثرياء انتماء القلب والعاطفة لأنه ثري مثلهم ، أو لأنه يكتب لهم وإنتاجه الأدبي لا يحبه غيرهم ، في هذه الحال ، تعود عواطفه عواطفهم .

وكذلك الشأن إذا كان الأديب ينتمي الى طبقة الفقراء ، فإنه عندئذ يعبر عن عواطفهم ويأخذ بأخلاقهم ويحلم أحلامهم .

اعتبر أشعار المتنبي الذي كان يجالس الأمراء والملوك . أو اعتبر كتاب « الأغاني » الذي ألفه الأصفهاني أيضاً للملوك والأمراء . فنحن هنا إزاء شاعر وناثر كلاهما قد نشأت عواطفه وتكونت أخلاقه وفق القيم والأوزان التي أحاطت بكل منهما . وقارن هذين الأديبين بكتاب « ألف ليلة وليلة » الذي وضعه مؤلف أو مؤلفون لتسلية العامة من الفقراء . فإنه كله أحلام الحرمان : طعام وقصر وامرأة جميلة وحظ يصيب الفقير المحروم فيرفعه فجأة إلى ملذات ومسرات لا تعرفها طبقته .

وليس الاختلاف هنا بشأن الموضوع ، لأن موضوع الأغاني يكاد يكون هو نفسه موضوع ألف ليلة وليلة ، كلاهما يتحدَّث عن الملذات الجسمية ، ولكن الأول يتحدث عن الواقع الملموس في عيش الأمراء والملوك والأثرياء ، والثاني يحلم بهذه الأحلام. ولكن الاختلاف الأصلي في أسلوب القصة والرواية . فإن « الأغاني » تليدي إتباعي كتبه بلغة القدماء لغة الفقه والتاريخ ، لأن قراءه من رجال الفقه والتاريخ ، بل ان مركزهم الاجتماعي ( الاقتصادي ) مرتبط بهما . أما ألف ليلة وليلة فقد كتب بلغة العامة ، لأن المؤلف منهم ولهم ، فهو ابتداعي لا يلتزم القواعد ولا يحترم تقاليد اللغة .

وأذكر أنا هنا أنه حوالي ١٩٢٥ حين ازداد الوجدان الشعبي في مصر اتجه كثير من الكتَّاب المجددين نحو اللغة العامة ، وحاولوا اصطناعها ، وهم بالطبع لم ينجحوا لأن الوجدان الشعبي الأدبي لم يكن كاملاً . ولكن حتى هنا يجب ان نتحفظ لأن المجلات الأسبوعية التي نشأت بعد الوجدان الشعبي أي بعد سنة ١٩٢٥ اتخذت اللغة العامية أو بالأحرى اتجهت نحوها . ولم تستطع هذه المجلات أن تستخدم واحداً من الأدباء السابقين حتى الذين داعبوا الدعوة الى اللغة العامية ، لأن هؤلاء نشأوا ورسخوا في الأسلوب الاتباعي التليدي .

وقد صادفت الحركات الأدبية في جميع الأمم التي وصلت إلى درجة معينة من الثقافة نهضتان : إحداهما النهضة التليدية أو الاتباعية ، والأخرى النهضة التجديدية أو الابتداعية. والاسم الأوربي للأولى هو الكلاسية ، أي اتباع القواعد والقيم القديمة أسلوباً وتفكيراً ، والاسم الأوربي للثانية هو الرومانتية ، أي ابتداع القواعد والقيم الجديدة .

ولكل من هاتين النهضتين قواعد اقتصادية . أعتبر مثلاً زعيم الكلاسية الفرنسية فولتير ، وزعيم الرومانتية الفرنسية أيضاً روسو . فإن فولتير اتباعي لا يبتدع ، وهو بعيد عن حياة الشعب ، يؤلف كتاباً عنوانه « الملك الشمسي » في مفاخر لويس الرابع عشر. وصحيح أنه يكافح التعصب الديني ، ولكنا حتى هنا لا نجد كفاحاً شعبيًّا. وإنما نجد كفاحاً ذهنيًّا في الدفاع عن حرية الرأي والعقيدة ، وهو يعيش معيشة الأمراء ، راضياً عنهم راضين عنه ، يدعوه الملوك لزيارتهم ، ويلبي هو هذه الدعوة ، فيعيش في بلاط الملك

البروسي ، ويراسل امبراطورة روسيا ، وهو يكتب بأسلوب تليدي اتباعي يتفق وعواطفه. ولا عبرة بأن يقال إنه كان أحد الأسباب لإلغاء العرش في فرنسا ، لأن حملته على الملوك والأمراء لم تكن ترمي إلى المحو والإلغاء وإنما الى الإصلاح فقط .

أما روسو فقد نشأ بين الشعب، بل بين الفقراء ، وعاش على خلاف للأخلاق السائدة، وحمل على الحضارة لأنها ، في عقله الكامن ، التفاوت الاجتماعي الذي تئن منه أكثرية الشعب الفقيرة ، وقال بأن الطبيعة البشرية حسنة لا تفسدها غير الحكومات والقوانين والحضارة . وما ننتظر من رجل الشعب في عصر لويس السادس عشر أن يقول غير هذا ؟ ثم كان أسلوبه أسلوب الشعب : البساطة في التعبير ؛ ثم كان تفكيره ابتداعيًّا ، أي ثوريًّا في التربية والمعيشة .

وأسلوب الكاتب هو شخصيته، أي هو أخلاقه التي اكتسبها من بيئته الاجتماعية الاقتصادية ، أي من عوامل الإنتاج والارتزاق التي يعيش فيها . فالكاتب الذي يعيش في بيئة صناعية مثل برمنجهام أو شيكاجو لا يمكن أن ننتظر منه أسلوب تولستوي الذي كان يعيش في عزبته بين الحقول ؛ لأن العواطف التي تتكوّن منها أخلاقنا تعين لنا أسلوب التفكير والكتابة ونوع الأدب السائد .

قرأت من مدة قريبة نقداً لكتاب ألفه جورج دوهاميل عن أمريكا الصناعية . وكان الكاتب أمريكيًّا ، فلم يجد في الكتاب غير السخف الذي يقارب البلاهة ؛ ذلك أن جورج دوهاميل يعيش في فرنسا حيث البيئة الانتاجية ، بالمقارنة الى أمريكا ، تكاد تكون شرقية زراعية ، ولذلك نجد انه يحمل على الامريكيين لاتجاههم المادي ، ويذكرهم بالقيم الروحية التي لا يكاد يفهمها الأمريكي . ومثل هذا القول نجده أيضاً في بعض الكتّاب الشرقيين في البيئة الزراعية عند ما يتهمون الحضارة الأوربية بأنها مادية قد نسيت « الروحيات »

ونحن في مصر هذه الأيام نتطوّر تطوّرات اقتصادية تجر في إثرها تطورات اجتماعية ، بل تطورات كتابية أسلوبية ، فقد ظهرت بيننا منشآت صناعية وتجارية قليلة ، ولكنها — على قلتها — قد أصبح التعليم حولها عامًّا أو كالعام ، والعمال والمتوسطون يقرأون

في هذا الوسط ، ولذلك تفشت المجلات الأسبوعية في هذا الوسط ، واستحدثت أسلوباً كتابيـاً يكاد يكون عاميـاً . أما الوسط الزراعي عندنا فلا يزال تقليديـاً تليديـاً ، بل هو كذلك حتى في الجهل والأمية . والمتعلمون في هذا الوسط يكاد عددهم يقتصر على المعلمين الالزاميين الذين ينزعون إلى التقاليد ، ويلتزمون الأساليب الاتباعية القديمة .

الاتباعية بتقاليدها وسننها ، والاتباعية باقتحاماتهـا وثوراتها ، تكادان تكونان مزاجين مختلفين في كل منا . تبدوان في الأخلاق والسلوك والمثليات والمعيشة ، وأخيراً تتبلور كل منهما في أسلوب الأديب ، لأن الأدب هو البؤرة التي تتجمع فيها الاتجاهات أو الآمال الاجتماعية فيشتعل فيها الخامد ويضيء فيها الغامض .

وقد نجد كاتباً ابتداعيـاً يعيش في أمة زراعية اتباعية ، وليس هذا عجيباً ، لأن هذا الكاتب قد تجاوز وسطه الاجتماعي الاتباعي الى وسط آخر ابتداعي في أمـة أخرى يستلهم منه المثليات والآراء . وكذلك يجب أن لا نبخس «الشخصية» ، فان الوسط لا يطبعنا كلنا على السواء بطابعه ، ومن هنا بعض اختلافنـا في الأسلوب والتفكير . وكذلك يجب أن لا ننسى أن في كل مجتمع تناقضات وأجنة اجتماعية ترتكض وتكاد تصرخ للخروج الى الدنيا . وكثيراً ما يكون الكاتب أو الأديب الذي يناقض عصره ويثور على مجتمعه أميناً لهذا المجتمع ، لأنه قد أحسَّ هذه الأجنة ، وأحسَّ أنه يجب عليه أن يعمل كي تولد في يسر ولا تحتاج الى «العملية القيصرية» ، كما هو الاصطلاح الطبي ، وما تجلب على الأمة من جراح ودماء .

لقد عشنا في مصر مئات السنين الماضية ونحن نمارس الصناعة في أنظمة إقطاعية تستند الى عقائد وتقاليد ، وبقي مجتمعنا متجمداً مئات السنين لم تغير منه سوى النهضة أو النهضات التجارية التي انتهت وزالت عند دخول الأتراك في سنة ١٥١٧ . ولم يبق لنا عقب هذا التاريخ سوى الأنظمة الاقطاعية التي كانت تمرّسها وتبقيها سيوف الأتراك حتى تجمَّد تاريخنا بل تعفَّن ، وانهار مجتمعنا أو كاد الى الفوضى .

ثم نهضنا في القرن التـاسع عشر ، وها نحن في أيامنا نرى جنيناً جديداً في البيئـة الصناعية التي تتجرثم في أنحاء البلاد . وهذه البيئة الصناعية تناقض البيئة الزراعية وترفض التقاليد والعقائد وتطلب الرأي والعلم . أجل هي بيئة ابتداعية تطلب أدباءها الذين لم يوجدوا في مصر الى الآن . هؤلاء الأدباء الذين يجب أن يساعدوا الجنين الجديد على أن يولد ، بأن يجعلوا أسلوبهم الكتابي الأدبي تجريبيـاً عضويـاً يملأ فراغاً ويؤدي وظيفة في المجتمع البازغ الجديد .

سلامه موسى

# سوق الغرور

## لوليم ماكيبس تاكري

ولد « وليم ماكيبس تاكري » بمدينة « كلكتا » بالهند في الثامن عشر من يوليو عام ١٨١١ . وكان أبوه موظفاً حكومياً .

وكان في طبعه حب التنقل من حال إلى حال ، وكان ظريفاً خفيف الروح ، تعلم في « كامبردج » وفي مدرسة الفنون بباريس وفي مدرسة الحقوق بلندن وكان يعيش على دخل موروث .

وحاول أن يكون صحافياً ، وأن يرسم صوراً كاريكاتورية . وكتب في مختلف الموضوعات ، ولما قل ماله عاش على أجر المحاضرات التي كان يلقيها .

ثم حل بساحته الحزن في أواخر أيامه يوم فقدت زوجه عقلها . ومات في لندن في اليوم الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٦٣ .

وقصته « سوق الغرور » التي يرى القراء خلاصتها في هذه الصفحات هي — كما يقول أحد النقاد — إحدى القصص العظمى القلائل في الادب العالمي كله . بل قد تكون القصة الوحيدة من قصص المجتمع التي يصح أن تسمى تحفة من تحف الادب . وهي وان تكن قد خلت من « بطل » فأنها لم تخل من « بطلة » .

والمحور الذي تدور عليه القصة هي تلك الشخصية الخالدة المنقطعة النظير شخصية « بكي شارب » التي كانت مثلا رائعاً من أمثلة المخاطرين المكافحين في المجتمع ، والتي جمعت بين الذكاء وبين الترخص في الخلق .

وهي منذ الساعة التي ألقت فيها من نافذة العربة ، بقاموس « جونسون » المهدى اليها من معلمتها إلى آخر ساعة مثلت فيها دورها على مسرح الحياة لم تحد يوماً عن طريق الخداع والحيلة .

أما ضحاياها فكانوا كثيرين ، وأما نجاحها فيما أخذت نفسها به فكان — إلا في الأمد الأقل — لا غبار عليه .

في يوم مشمس من أيام يونيو ، وفي إحدى السنين الأولى من القرن الثامن عشر ، غادرت فتاتان في شباب العمر ونضارة الشباب ، مدرسة الآنسة « بنكرتون » للبنات لتضربا بسهميهما في هذا العالم الواسع . ذلك لأن أيام الدرس عندهما قد انتهت .

والفرق جدّ كبير بين أميليا سدلي بوجنتيها الورديتين وابتسامتها الحلوة وعينيها الزرقاوين اللتين تنبئان عن براءة لا حدّ لها ، والتي غادرت المدرسة مودّعة بحب جميع زميلاتها في الدرس . وهي تعود إلى أحضان عائلتها ذات الثراء والمجد .

أقول إن الفرق جدّ كبير بين « أميليا سدلي » وهي من وصفنا . وبين « بكي شارب » التي لم يحزن لفراقها أحد . ولو أنها قد جعلت سفرها مذكوراً لا ينسى . وذلك بالقائها من نافذة العربة هدية الوداع ، وكانت تلك الهدية قاموس « جونسون » !

وقد حزّ هذا العمل في نفس « أميليا » السمحة الرضيّة ، التي لم تسيء في حياتها إلى أحد . والتي لم تحس يوماً إحساس الكره لأحد . ذلك الكره البغيض الذي فاض به قلب « بكي » في تلك اللحظة . موجهة إياه إلى الآنسات « بنكرتون » وإلى مدرستهن اللطيفة .

وقد بدت البغضاء منها — وكانت من قبل مجبرة على كبتها وكتمها — وصبّت وابلاً منها على رأس أميليا وقالت : قد يكون الكره لوناً من ألوان الخبث ولكنه شيء طبيعي وأنا لست ملكاً من الملائكة .

وفي الحق إن الحياة قد قست على « بكي » . فقد كان أبوها مصوراً بارعاً . وكان من خلقه عدم المبالاة . وكان مولعاً بالخمر . وكانت أمّها — وقد ماتت منذ زمن بعيد — إحدى فتيات الأوبرا .

وكان أبوها يعلم الرسم في إحدى مدارسه . فلما مات ذهبت « بكي » — وكانت قد بلغت السابعة عشرة من عمرها — لتعلم اللغة الفرنسية لقاء أن تتعلم هي الإنجليزية ولقاء سكنها وغذائها . ولم يكن هذا مما ترضى عنه وتسعد به فتاة من خلائقها الكبر .

وكانت « بكي » نحيلة ، ضئيلة ، ذات شعر أغبر . وقد تجهّمت لها الحياة تجهماً لا يمكن أن يخطر ببال الفتيات ذوات الصون .

وهي لذلك قد فاض بالكره قلبها على ما تلقاه الفتيات من راحة وهناء . وذلك بالقياس إلى ما قسم لها من فقر مدقع . وما قدر عليها من غيبة الحامي وفقدان النصير .

ولكنها مع ذلك — قد أجمعت أمرها أن تتعلم ما يرفع من قدرها في الحياة وهو أن

تكون يوماً ما وصيفة في بيت من بيوت أثرياء القوم ونبلائهم .

وبعد حرب كلامية دارت بينها وبين كبرى الفتيات « بنكرتون » سمعت هذه الآنسة بأن عائلة « سير بت كرولي » تطلب وصيفة . وهكذا بُتّ في أمر مستقبل « بكى » .

وكانت الفتاة الطيبة القلب « أميليا » قد عقدت أواصر الصحبة بينها وبين الفتاة اليتيمة . فرأت — وقد تقرّر أن تغادرا المدرسة في وقت واحد — أن تدعو صديقتها العزيزة « بكى » لتقضي معها أسبوعاً في بيت أهلها قبل أن تبدأ مخاطرتها الجديدة .

ولما وصلت « بكى » الى « بلومسبري » فُتنت بكل شيء هناك . وكانت بصفة خاصة تكثر من السؤال عن فتى البيت الوحيد السيد « جوزيف » الذي كان يومئذٍ عائداً من الهند في إجازة مرضية . حيث كان يعمل موظفاً ممتازاً من موظفي شركة الهند الشرقية .

وكانت تلك الفتاة غير اللبقة تسأل : « أغنيٌّ هو ؟ أله زوجة وأولاد يسعدونه ؟ وبدا عليها العجب كل العجب عندما أنبأتها « أميليا » — في سذاجة الأبرياء — أنّ أخاها لم يذق من قبل طعم الصبابة والحب .

وما كان « جوزيف » ليستطيع أحد أن يقول إنه جميل . ولو أنه هو كان يظن بنفسه أنه جميل . ذلك لأنه كان عريض المنكبين . سمين الضواحى . قد بالغ في العناية بزيه وهندامه وكان فوق ذلك مغروراً .

ولكنه كان إذا رأى امرأةً تولّته نوبة من الخجل لم يكن يستطيع أن يتغلب عليها أبداً .

وحتى كلمات المديح التي كانت تنطق بها « بكى » في نصف همس : وهي تثني على منظره البهيّ . لم تستطع أن تعيد إليه الثقة بنفسه .

ومن نافلة القول أن نذكر أنّ صاحبنا هذا — وقد كان يخيَّل إليه أنه رجل محنَّك كان لا يقيم في بيت أهله . بل كانت له غرف في حي من الأحياء الحديثة في المدينة . وكان يحيا هناك حياة من خلع العذار على قدر ما تواتيه « قدرته » . ولكنّ أصحابه كانوا قليلين ولم تكن الحياة تسره حقاً . وهو ذلك الرجل المختال الفخور .

وقد قبل يوماً — طوعاً لأمر أبيه — أن يبقى ليلة عادت « أميليا » ليتعشى . وقد

سرّه ما قالته عنه « بكى » . وما أبدته من الرضا عند ما ذاقت لأول مرة الأرز على الطريقة الهندية . ولو أنّ الفتاة المسكينة ـ والحق يقال ـ وجدت هذا الأرز لاذعاً حريف المذاق .

وكانت « بكى » في الأيام التالية مثلاً من أمثلة عرفان الجميل . حتى لقد أسرت قلوب العائلة كلها . وبدت « أميليا » في نظرها — أكثر من ذي قبل — أعزّ صاحب وصديق . وحتى لقد كان من أثر هذا أن قد بدأ « جوزيف » تتملكه الثقة بنفسه تدريجيًّا وهو في حضرتها . فلما ذكّرته أخته بزيارته التي وعد بها لـ « فوكسهول » كان أكثر الناس شوقاً الى الذهاب الى تلك الناحية .

ولما كان من الضروري أن يكون هناك رفيق من الحماة لتلك الفتاتين فقد ذكر اسم الضابط « جورج أوسبرن » وهو ابن « مستر سدلي » في العماد . وكان الوالد وهو ينطق بهذا الإسم يغمز بعينه غمزةً خفيفة وهو يشير إلى « أميليا » .

فلما جاءت ليلة السفر هبّت عاصفة هوجاء صحبها برقٌ ورعد . فاضطرّ الأربعة أن يبقوا بالمنزل فأتاح هذا البقاء فرصة للنجوى وهمس الحديث .

وقد سرّت « أميليا » برؤية فتاها « جورج » الجريء الجميل الذي عرفته وأحبّته كل الحب منذ الطفولة . بينما رحّبت « بكى » بالفرصة التي أتيحت لها لتمضي قدماً في سبيل غزو قلب « جوزيف » الذي « أحسّ » بأنه قد أصبح متحدثاً بارعاً عند ما خلا إليها . وقد فتن بغنائها الذي كان حقّاً غناءً مستحبًّا .

ولقد خطر بباله أنه مما قد يسرّه أن يصبح زوجاً لتلك الفتاة اللطيفة المهذّبة الجذّابة . ولو كانت فقيرة لا تملك درهماً .

وفي اليوم التالي صحا الجوّ واعتدل الهواء وتقرّر القيام بالرحلة الى « فوكسهول » . وأحسّت « بكى » إحساس الواثق أن النصر سوف يعقد لها لواءه الليلة فيجثو « جورج » عند قدميها .

وقال « جورج » إنه قد دعا صديقه الكبير « وليم دوبن » ليلحق بهم في المساء . وأضاف الى ذلك قوله إن بينهما صداقة وثيقة العرى منذ كانا طالبين . ومنذ وقف « وليم » في صفه يوم احتدم العراك بينه وبين أحد المشاغبين في المدرسة .

و « دوبن » هذا فتى خجول . مديد القامة . فارع الطول . وهو كذلك فتىً غبيّ أخرق على ما به من قدرة على الاحتفاظ بمصالحه .

وكان هذا « الفتى » يجد لذةً في العناية بجورج يوم كان صغيراً . وكان أبوه يومذاك بدّالاً فأصبح اليوم رجلاً واسع الثراء . بل قد أصبح صاحب لقب.

ولما وصلت الجماعة الى « فوكسهول » انقسموا قسمين . ولو أنهم قد تعاهدوا على أن يلتقوا إذا حان موعد العشاء بينما قد أبيح لـ « دوبن » أن يطوّف ما يطوّف .

أما « بكي » فلم تجد ما كانت تشتهي في الألعاب النارية . ولا في الموسيقى . ولا في الألف متعة ومتعة التي كان يفيض بها ذلك المكان الساحر. وزادت في هزيمتها الخمر التي قدمت ساعة « العشاء » . ذلك لأنّ « جوزيف » قد عبّ منها بالكبير وبالصغير ففقد وعيه . وطفق يغني ويتشاجر . ولولا وصول « دوبن » في الوقت المناسب لكانت الخاتمة أسوأ وأشنع .

وأسرع « جورج » فنحّى الفتاتين . وترك صاحبه يدبر الأمر مع « جو » .

وكانت « بكي » في اليوم التالي لا تزال متفائلة . ولو أن أوان رحيلها كان قد دنا واقترب .

فلما أزف وقت الرحيل أثنت هي على العائلة ثناء طيباً . وقبلت مع الشكر الجزيل الكثير من الهدايا التي أغدقتها عليها « أميليا »

وكان سير « بت كرولي » لا يحبه الناس ولا يوقرونه . وكان على « بكي » أن تذهب الى قصره في المدينة وأن تصحبه الى بيته في الريف حيث كان يمضي جلّ أوقاته وكان عليها كذلك أن تخدم ابنتيه من زوجته الثانية التي كانت من عامة الشعب .

وكانت « بكي » يملؤها الأمل بما سوف تلقاه من أناقة وسموّ في الخُلُق لدى « البارون » . وكانت تقارن بين هذه الأخلاق السامية المرجوّة . وبين ما لقيته من جوّ ينبيء عن عامية في كل شيء في بيت آل « سدلي »

ولشد ما دهشت عند ما رأت أن الذي فتح لها الباب شيخ قد تقدمت به السن. في رأسه صلع . وفي عينيه دهاء . وقد ركبتا في وجه به حمرة . وقد قادها الى قصر قديم مظلم . وهناك

عرفت أنه رب القصر . وانه هو نفسه « سير بت » . وسرعان ما تبين لها أن الحقارة هي أبرز رذيلة فيه . وانه لا يوقر رجلاً . بل لا يوقر امرأة ...

وفي خطاباتها الى « أميليا » وصفت « بكى » « البيت الكبير » ووصفت ربته التي جفَّ عودها . والتي لا تستطيع أن تظهر بالمظهر اللائق بمكانتها . ووصفت البنتين اللتين لاقيمة لهما ولا وزن . ثم وصفت أخاهما لأبيهما مستر « بت » وهو وريث اللورد . ووصفت ورعه وتقواه . وتحدثت عن « رودن » أخي البنتين لأبيهما . وكان يقيم بعيداً مع فرقته . ثم وصفت ريح البلى والانحلال التي تملأ جو المكان .

وكان « بيوت كرولي » أخو سير « بت » صاحب الكلمة العليا في الابرشية . وكان ما بين عائلته وعائلة أخيه لاينبىء عن ودٍّ كثير . ذلك لأن مطامع كليهما المالية كانت مركزة في ثروة الآنسة «كرولي» . وكانت مسألة تصرفها في مالها مصدر قلق للأخوين .

ويبدو أن «رودن» كان صاحب الحظوة عندها . ذلك لأنها كانت تسدد ديونه التي بات حتماً سدادها عند ما أصبح ضابطاً في الجيش .

وكم كثر القيل والقال عند ما كانت السيدة العجوز تزور القصر . وكان هذا البيت القديم لا يعرف الشهيّ من الطعام . ولا تبدو عليه آثار النعمة إلاّ في أيام تلك الزيارات .

أما « بكى » فقد استقرَّ بها المقام بين أفراد العائلة . ولم تدع وسيلة من وسائل الارضاء الاّ اتخذتها حسبما أوحى اليها تفكيرها .

وكان مستر « بت » ينظر اليها نظرة الاعجاب والتوقير . وكانت تلعب « النرد » مع والده الذي كان دائم النشو . وسرعان ما أصبحت له عوناً ككاتمة سر له . تنظم أوراقه وترتب خطاباته . ذلك لأن الرجل العجوز كان لا ينفك مشغولاً « بقضية من القضايا أو بأخرى . وكلما طال المقام بها زاد اعتماده عليها وعلى نصائحها التي تبديها . وقلما كان يعمل شيئاً دون مشورة تلك الفتاة الوصيفة .

ولقد كان يوماً عبوساً ذلك اليوم الذي استقرَّ فيه رأيها على أن تزور قومها في الريف وبذل كل سعي لثنيها عن عزمها .

وكانت العائلتان « بيوت» و « كرولي » تخفيان ما بينهما من نزاع اذا حضرت تلك الفتاة حتى ليحسبهم المرء جميعاً وقلوبهم شتى .

وجاء « رودن» يوماً للزيارة . وكتبت عنه «بكي» الى صاحبتها « أميليا » فوصفته بأنه كثير التأنق . تحبه عمته وتعجب به . ذلك لأنها تطمح الى رجل جميل . رجل خبير بأمور الدنيا . يستطيع أن يشرب، ويقامر، ويدخل في عراك . وينصب شباك الحب لامرأة حسناء ويحيا حياة تكون في نظر تلك العمة في الذروة من الرجولة .

أما مسز «بت» فكانت لا تقيم له وزناً . وكانت تنظر اليه نظرها الى « مخنث » . وقد انتهز هو فرصة زيارة عمته فغاب عن البيت .

وكذلك الآنسة « كرولي » لم تكن بمنأى عن مدار سرور « بكي » . وكانت تكثر من الحديث عنها في كل مناسبة . وكانت تفخر بآرائها الحرّة . وكانت تقسم على أن « بكي » هي الشخص الوحيد في الضاحية كلها الذي يفيض حديثه حيوية وذكاء .

ولم تكن العمة . ولم تكن «اميليا» قد سمعتا من قبل أبداً بما كان بين « بكي » وبين « رودن » من نزال وصدام . فقد كان هذا الفارس بطيء الحديث . ولم يرزق موهبة معسول الكلام . ولكن «بكي» استطاعت أن تقرأ إعجابه بها في عينيه . وخلقت هي منه « زير نساء » دون أن تضحي بذرة من ظرفها ورقتها . ولو أنها كانت تلجأ الى فتنة عينيها وسحر حديثها في لباقة لا حدّ لهما .

أما « أميليا » فقد كان يشغلها الحب والإعجاب ، بـ « جورج » الذي كان — والحق يقال — يرى أنه أمر طبيعي أن يكون موضع حب .

وفي الحق أنه ظلّ حياته كلها مدلّلاً محبوباً من أختيه المفتونتين به ومن أبيه الفخور به فكان يرى غرام الفتاة به أمراً عادياً غير مستغرب .

وطالما شقيت الفتاة وتجرعت الغصص من قلة عناية « جورج » بها إذ كان جلّ وقته مضيّعاً في المقامرة . ولعب البليارد . ومشاركة اخوانه من الضباط في مسراتهم ولهوهم .

وكان على الصغيرة « إمى » أن تتحمل كل هذا في صبر بالغ . ولو أن وسادتها طالما شكت البلل من فيض دموعها .

وبدا على أبيها أخيراً الهم والقلق . ذلك لأن والد « جورج » أنبأه بأن من الخير كل الخير أن تقلل ابنته من الزيارة .

يتبع

مبارك ابراهيم

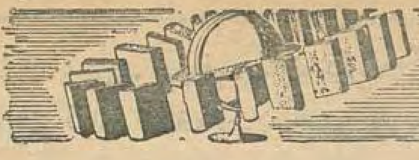

# مكتبة المقتطف

## نقد كتاب القراءات واللهجات

تأليف الأستاذ عبد الوهاب حمودة

طالعت كتاب القراءات واللهجات ، وأعدت قراءته ، فوجدتني أتنقل بين أساليب تختلف في انماطها لاختلاف قائليها . واستمع الى آراء متباينة لكثير من المؤلفين جمعهم أستاذنا عبد الوهاب حمودة وتركهم يطغون على كتابه ويذهبون به نهباً مقسماً ، وما يكاد يفصل برأيه فيما شجر بين المؤلفين في كتابه من خلاف . وكل من طالع هذا الكتاب يجد أسماء لعشرات من الكتب أخذ عنها ورجع اليها ، ولكن تمنيت مخلصاً لأستاذي لو أن ما جمع في هذا الكتاب تأخر به الزمن عاماً على الأقل ليديره في نفسه ويقلبه على وجوهه ويوفق بينه بعد أن يستجم قليلاً من ذلك المجهود الذي بذله في الجمع والتحصيل ، ولو انه فعل ما أشير به لكان له رأي فيما نقل وأسلوب فيما عرض ولاستغنى عن كثير من التكرار

أما الكتاب بوضعه الحالي فقد حشدت مواده على عجل لينتظمها كتاب . وطبعت صفحاته في اسراع ، من غير أن تنسق مواده تنسيقاً محكماً ، ومن قبل أن تهضم ، ثم تتمثل في أسلوب منسجم ، وتقدم للقراء في عرض متماسك جميل . ولقد حاولت مناقشة المؤلف فلم أظفر به إلاّ مستتراً خلف عشرات المؤلفين وما كنت أحب لأستاذي أن تتراكم حوله الكتب فتخفيه عن أعين الناظرين ، على أن المجهود الذي بذله في جمعه وترتيبه ودفاعه القيم المستمد من نصوص القدامى ضد المستشرق جولد تسهير والمغرضين يستحق عليه الشكر والتقدير .

وأستاذنا على الرغم من كتب القراءات التي يذكر أنه نقل عنها القراءة والقراء تراه لا ينقل نماذجه إلاّ من تفسير البحر لأبي حيان ، فان أطال أطال مثله ولو لم يكن الأمر مقتضياً الافاضة ، وإن أوجز تبعه في ايجازه حتى مع الحاجة الى الاطناب ، وان أخطأ اندفع معه في المزالق بدون تحقيق ، وإن أبهم وقع مثله في الابهام ولا يتحفنا بالتوضيح .

فمن التطويل مثلاً في ص ١١٨ نقله : « قرأ أبو جعفر والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثاب وابن عامر ونافع والكسائي : « يصدون » بضم الصاد وقرأ الكسائي « كذا »

والفِراء بكسرها وهما لغتان بمعنى ». فهو في هذا قد ذكر عدداً من القراء ليسوا من الأربعة عشر في حين أنه لو رجع الى كتاب اتحاف فضلاء البشر في هذا الموطن لوجد انه ترك ممن يضمها خلفاً من العشرة ، والحسن والأعمش من الأربعة عشر ، وترك ممن يكسرها أبا عمرو وحمزة وابن كثير وعاصماً وهم من السبعة ، ويعقوب من العشرة ، وابن محيصن واليزيدي من الأربعة عشر ، وهؤلاء جميعاً الذين تركهم أولى من الفراء والنخعي وأبي رجاء الذين نقلهم الينا .

وفي مقدمة كتابه قال إنه قرأ جميع كتب القراءات فكان الأجدر أن يجمع ما فيها من نسبة القراءة لقرائها ما دام يريد الاطناب ، وأكثر تطويل نراه في ص ١٥٠ و ١٥١ عند قراءة مالك يوم الدين. ومن الاختصار الذي لا أدري ما الحكمة فيه مع أنه فصل قبله وفصل بعده ما نقله في ص ٣٩ : « الحصاد : قال الفراء الكسر للحجاز والفتح لنجد وتميم » ولم يذكر لنا من قرأ بالنوعين. ولو رجع إلى الاتحاف لرأى أن أبا عمرو وابن عامر وعاصماً ويعقوب واليزيدي . قرءوا بفتح الحاء وقرأ باقي الأربعة عشر بالكسر .

ومن الابهام ما نقله عن البحر في ص ١٢٥ : قرأ الإخوان وحفص « ولم يذكر في جميع كتابه من هما الاخوان أن تفسير البحر كان يذكر في أجزائه الأولى أسماء القراء . ثم أخذ في أجزائه الأخيرة يذكر الألقاب ورجعت الى كتب القراءات فتبين لي أن الأخوين الذين يعنيهما البحر هما حمزة والكسائي . ولست أدري السبب في تسميته لهما بذلك فلعلي أظفر من أستاذي بإيضاح

ومن الخطأ ما نقله في ص ٣٧ : « الرسل جمع رسول ... وتسكين عينه لغة أهل الحجاز والتحريك لغة بني تميم » مع أن بني تميم هم الذين يسكنون. فليرجع إن شاء الى كتب اللغة والنحو والصرف والأدب والقراءات واللغات ، بل فليرجع الى البحر نفسه في مواضع أخرى بل فليرجع الى نقله في كتابه القراءات واللهجات عند كلامه على « فنظرة الى ميسرة ص ٣٨ ومثل هذا يقال في نقله ص ١٢٦ حول « عورات » .

وهناك ظاهرة أخرى في الكتاب ذلك أنه ينقل آراء مختلفة ولا يوفق بينها :

ففي ص ٤٦ ينقل : « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً وصحّ مسندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها سواء أكانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين » .

وفي ص ٥٢ ينقل : « الذي لا شك فيه أن قراءة الأئمة السبعة والعشرة والثلاثة عشر

وما وراء ذلك هي بعض الأحرف السبعة من غير تعيين » .

وفي ص ٦٩ ينقل : والذي نصَّ عليه أبو عمر بن الصلاح وغيره أن ما وراء العشرة ممنوع من القراءة به منع تحريم لا منع كراهة. وقال ابن السبكي في كتابه جمع الجوامع في الأصول . ولا تجوز القراءة بالشاذ والصحيح أن ما وراء العشرة فهو شاذ وفاقاً للبغوي والشيخ الإمام الوالد .

وفي ص ٧٤ ينقل ان القراءات المشهورة اليوم عن السبعة والعشرة والثلاثة عشر بالنسبة الى ما كان مشهوراً في الأعصار الأول قل من كثر ونزر من بحر ... وقد ذكر الناس من الأئمة في كتبهم أكثر من سبعين ممن هو أعلى رتبة وأجل قدراً من هؤلاء السبعة .

وفي ص ٧٦ ينقل : « بل من ثبت عنده قراءة الأعمش شيخ حمزة أو قراءة يعقوب الحضرمي ونحوهما كما ثبتت عنده قراءة حمزة والكسائي فله أن يقرأ بها بلا نزاع بين العلماء المعدودين من أهل الاجماع والخلاف ... ولهذا كان أئمة أهل العراق الذين ثبتت عندهم قراءات العشرة والأحد عشر كثبوت هذه السبعة يجمعون في ذلك الكتب ويقرءونه في الصلاة وخارج الصلاة وذلك متفق عليه بين العلماء لم ينكره أحد منهم » .

وفي ص ١٣٣ ينقل : ما عدا السبع أو ما عدا العشر

« ممنوع من القراءة به منع تحريم في الصلاة وخارج الصلاة . » . فنحن نرى نقولاً مختلفة وفتاوى متنوعة فيها مرة حكم بالشذوذ على ما وراء العشرة إطلاقاً . وفيها تارة قاعدة عامة تقتصر في الحكم بالشذوذ على ما خالف الشروط . ولم أجد من أستاذي فصلاً في المسألة أو ترجيحاً لرأي، بل ترك الفصل للقراء، كما يترك رئيس المناظرة الحكم للمستمعين، والواقع أن الحكم على إطلاقه بأن ما وراء العشرة شاذ لا تصح به الصلاة حكم خاطىء لأنه لا يعتبر المقروء شاذاً إلاَّ إذا خالف الرسم العثماني وصحة السند والعربية . وإذاً فمن بعد العشرة يقرأ بقراءتهم في الصلاة وخارجها فيما وافقوا فيه الرسم العثماني. أما الشذوذ الذي حكم عليهم به فإنما هو فيما خالفوا فيه الرسم الذي نشره سيدنا عثمان بموافقة الصحابة . وإن الأعمش والحسن وابن محيصين واليزيدي أئمة مقبولون جمعوا إلى صحة السند موافقة العربية ، وخالفوا في نادر الآيات الرسم العثماني . فالأعمش أهم شيوخ حمزة الذي هو شيخ الكسائي وهذان من السبعة . والحسن من شيوخ أبي عمرو أحد القراء السبعة. وكذلك ابن محيصين من شيوخ أبي عمرو وقراءة أبي عمرو حكم العلماء عليها بأنها أفصح القراءات . وقد وصلت إلى السوسي والدوري فإلينا عن اليزيدي عن أبي عمرو ، فلو لم يكونوا ثقات مقبولين لما تلقى عنهم أحد . غاية ما في الأمر أن هؤلاء الأربعة تلقوا بعض ما خالف الرسم

العثماني مما كان مأذوناً فيه قبل أمر عثمان باتباع مصاحفه واعتمدوه، فليست المسألة إذاً مسألة سبعة أو عشرة أو غيرهم وإنما هي مسألة شروط يوافقها القارىء فيعتمد وتقبل رواية لها أو يخالف بعضها فيشذ أو يكذب .

ونوع آخر مما لا يحكم فيه أو يرجحه نقل في ص ٢١ : قال تعالى « ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم » قرأ علقمة ويحيى بن وثاب والأعمش « رِدت» بكسر الراء وهي لغة لبني ضبة . . . » . وفي الهامش أشار إلى أنه نقل ذلك عن البحر والاتحاف . (وفي ص ٢١٨ نقل ثم ردوا الى الله مولاهم الحق » روى أن عاصماً قرأ بكسر الراء وهي لغة هذيل « وأشار في الهامش إلى أنه نقل عن طبقات القراء» . ان « اتحاف البشر » لم يذكر أحداً من هؤلاء الذين ذكرهم، بل اقتصر على نسبة قراءة الكسر إلى الحسن فحسب، واكتفى بأن قال إنها لغة . فكان الواجب على أستاذنا أن يضم الحسن إلى من نسبت إليهم قراءة الكسر. أما ذكر الكتب بدون النقل عنها والاستفادة منها فلا داعي له إلاّ إذا كانت المسألة تعداد كتب فحسب . ومع الأسف قد تكرر ذلك في عدة مواضع من الكتاب. ثم إن نسبة هذا الكسر مرة إلى ضبة ومرة الى هذيل لم يفصل فيه ولم يرجح أي الروايتين تستحق التفضيل . ولو بحث في قراء الكسر وسند قراءتهم لوجد أن علقمة ويحيى بن وثاب والأعمش ينتهون الى عبد الله بن مسعود وهو من قبيلة هذيل. وكذلك عاصم ينتهي سند كثير ممن أخذ عنهم الى عبد الله بن مسعود . أما الحسن فلا صلة له في قراءته بالرواية عن ابن مسعود. ولكن كما يخبر عن نفسه نشأ بين قوم هذليين وأذعن. فالصحيح انه من يكسر الراء وما شابهها في الماضي الثلاثي المضعف إذا بنى للمجهول هم قبيلة هذيل .

وتجد في كتاب أستاذنا إكثاراً من ذكر المصادر في أهون الأشياء بدون حاجة تدعو الى ذلك : فمثلاً في ص ٣٥ قوله «أما تميم فهي تميم بن مر بن أد بن طابخة . . . وهمّش بما يأتي: دائرة المعارف الإسلامية ، الاشتقاق، نسب عدنان وقحطان ، المعارف ، السمط ، تاريخ آداب اللغة لجرجي زيدان . تاريخ ابن خلدون» . ولعله نسي أن يذكر العقد الفريد ، وصبح الأعشى ، والبيان والإعراب ، وسبائك الذهب ، والعرب وأطوارهم ، والرحلة الحجازية ، والكامل لابن الأثير ، والبدو والتاريخ ، وشرح القاموس ، وابن خلكان ، فكلها الى كثير من الكتب الأخرى فيها أنساب .

وظاهرة أخرى هي تكرار كثير من الأمثلة بنصها وتطويلها . فمثال في ص ١٥ أعاده في ٤٤، وثلاثة أمثلة في ص ١٦ أعادها مفرقة في ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٧ ، ومثال في ٢٢ أعاده في ١١٨ ومثال في ص ٢٧ أعاده في ١٢٣ ، ومثال في ٣٨ أعاده في ١١٤ . وأربعة أمثلة في ٣٩ أعادها مفرقة

في ١١٩ و١٢٤ و١٢٦ ومثالان في ٤٥ أعادهما في ١١٣ و ١١٤ .

كما أنه يكرر كثيراً من الأقوال المنقولة بصفحاتها ، فكأنه نسي أنها تقدمت أو نسي القراء ما قرءوه. فمثلاً كلامه المنقول في « معايش » في ص ١٤١ و ١٤٢ أعاده كله في ص ١٧٩ و ١٨٠ بدون تغيير . وفوق هذا فانه يكثر من النقل حول معنى واحد في حين أنه يكفي منه القليل . وتجد هذا ممثلاً بوضوح في الفصل الثامن الذي سماه القراءات والنحاة ، كما أعاد كثيراً مما تقدَّم نقله في الكتاب بنصه في الفصل التاسع الذي سماه المبادىء والمسائل.

ولعلَّ حب أستاذنا للاكثار من أسماء الكتب في الهوامش جعله ينوّع في أسماء بعضها ليزيد عددها فهو مثلاً يقول مرة « تفسير أبي حيان » ومرة يقول « البحر المحيط » أو يقول « الكشاف » ومرة يقول « تفسير الزمخشري » أو يقول « فتح الباري » ومرة يقول « الفتح » ومرة يقول « ابن حجر » .

ويظهر أن الاسراع بضم ما جمع جعله ينسى فيذكر ما ليس موجوداً . ولعلَّ ذلك سبق قلم منه . ففي ص ٢٢ « قرىء فكان أبواه مؤمنان » وهي لغة بني الحارث ولغة « سليم » وهمش عليه انه منقول عن تفسير البحر مع أن « البحر » لم يذكر سليماً وليس للبحر الا طبعة واحدة . ولم ينسب أحد في جميع كتب النحو التي قرأتها أن الزام المثنى الألف من لغة سليم ، مع أنهم ذكروا قبائل كثيرة نقلها أستاذنا في ص ٢٣ . وفي « الهمع » استقصاء لها ليس فيه سليم .

مرة أخرى أبدي أسفي على أن هذا الكتاب قد أضرَّ به الاسراع ، وأتمنى أن يعيد أستاذنا نظره فيه ثم يطبعه مرة أخرى إن شاء الله في اناة بعد أن يستجمع شوارده ويتجنب الطابعون كثرة الأخطاء التي لا يزال بعضها باقياً على الرغم من صفحة التصويبات التي وضعت آخر الكتاب .

ففي ص ٢٠ تسع وتسعون نعجة ونعجة أنثى ، والصواب حذف « ونعجة » أو زيادة « لي » قبل نعجة انثى . وفي ص ٢٢ ترقيم ٢٧٢ ، والصواب ١٥٥ . وفي ص ٢٣ خيثم ، والصواب خثعم . وفي ص ٣٠ ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والصواب للنبط . وفي ص ٣٥ تميم بن مرة ، والصواب مر . وفي ص ١١٨ وابن وثاب وعامر ، والصواب وابن عامر . الى غير ذلك من الأخطاء المطبعية التي قد تغير المعنى أو توقع في اللبس . واني لأكتفي بهذا القدر وأتمنى لي ولأستاذي التوفيق فيما نكتب وما نقول .

عبد الستار أحمد فراج
المحرر بالمجمع اللغوي

# باب الأخبار العلمية

## إرتقاء الطيران وأطواره

### (الهليكوبتر مطية المستقبل)

إنّ التحسين التام للتاكسي الجوي ، سينفذ بلا شك عن طريق الهليكوبتر أو بوساطة الأوتوجيرو ، ولكن الى درجة معينة . أي بآلة في وسعها الهبوط في رقعة من الأرض لا تزيد على بضع يردات مربعة ، سواءاً أكانت في ميدان أم على سقف بيت .

وعلى هذا المنوال يُتاح الحصول على ما يعادل التاكسي أو الأوتوبيس نفعاً . فيغدو هذا التاكسي الجوي ينقل السائح من المحطة الكبرى النهائية للخط الجوي ، الى أي مكان قصي في بلده . وبهذا الأسلوب توجد الحلقة الأخيرة المنشودة التي طالما طمح إليها المشغوفون بالسفر الجوي .

ولا مندوحة عن جعل هذا التاكسي الجوي ، إما على شاكلة طائرة هليكوبتر بأجمعها ، وإما على غرار بعض أجزائها ، أجل إن الهليكوبتر قد ظهرت في الحرب العالمية السابقة ، بيد أنها لم تكن في إبانها قد بلغت أوج كمالها ، وإنما أتيح لها وقتئذٍ الوصول الى مرحلةٍ عمليةٍ على الأقل .

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ « لو » العالم الانكليزي » وثمة أمنية عظيمة بشأن تسهيل تطيير هذا النوع في الأعوام الخمسة أو العشرة القادمة . وذلك على أيدي « المغرمين بالفنون الجميلة » ونرى أنه من المحقق أن عدداً جماً منها لابدّ من استخدامه في خلال الحقبة المشار إليها .

### (الهليكوبتر)

### في خدمة مصلحة خفر السواحل

وقال ضابط عظيم من ضباط الجيش الأمريكي : « ان طائرات الهليكوبتر تعد أنفع نوع لأداء كثير من الأعمال الشاقة المعتادة المفروضة على مصالح خفر السواحل في أزمان السلم . ذلك لأن القدرة الغريبة التي تتميز بها هذه الطائرات وهي حركتها الرحوية ، تهوّن عليها خفض سرعتها عند هبوطها ، وتمكنها من الوقوف ثابتة في الجوّ ، وتتيح لها التحليق في الهواء والهبوط منه ، في زوايا تامة الانحدار ، وذلك الى مهبطها الضيق فتستطيع الاضطلاع بمهام التفتيش المحكم على الزوارق المشتبه في شرعية أوساقها ، وهي التي تقدم على الدنوّ من شواطىء البحار . ثم إنزال مرشدي السفن « أدلائها » على ظهور البواخر القاصدة

دخول المرافىء واصعادهم إليها عند مزايلة البواخر للمواني قصد سفرها الى الخارج ، فضلاً عن نقل الملاحين من سفنهم الجانحة أو الغارقة وانتشالهم من سطوح قطع الجمد الطافية فوق المياه ، وما شاكلها من المواقف الخطرة ، وذلك بحبال تمدها الى ظهور سفن الانقاذ . كما تقوم أيضاً بنقل المؤن والمستخدمين من المنائر وإليها وتساعد سفن المنائر وغيرها في مجاهل البحار المنعزلة .

وقد جرّبت وزارة البحرية الأمريكية استخدام طائرات هليكوبتر مزوّدة بآلات رافعة كهربية ، بصفة كونها وسيلة فنية جديدة لانقاذ ضحايا البحار ، فنجحت هذه التجربة . وذلك بأن تحلق إحدى هاتيك الطائرات في الجو حيث توجد ضحايا الحوادث البحرية والجوية ، ثم يُدلّى من الآلة الرافعة حبل ذو خطاف يشبكه طالب الانقاذ بمعطفه «جاكتته» الخاصة بالانقاذ من الغرق ، فينشل من اليمّ الى الطائرة . وذلك بلف الحبل على بكرة الآلة الدافعة المثبتة في الهليكوبتر .

## (تاريخ اختراع) الهليكوبتر والأوتوجيرو ووصفهما

في اليوم الخامس والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٩٣٧ استطاعت طائرة من طراز هليكوبتر ، اخترعها المهندس الألماني هينريخ فوك . قطع عشرة كيلو مترات على طائرة من مدينة ستندال ، الى مدينة برلين في المانيا . فكانت هذه الحادثة أول مرة في تاريخ الطيران ، أتيح فيها لطائرة من نوع الهليكوبتر ، مغادرة ميدان التجارب للتحليق في جوّ هاتيك البلاد . فدلّ نجاحها على ما سوف يجنيه العالم من منافعها ، وقضى على ما كان يخالج الناس من شكوك في فلاحها فانقطع الجدل الذي كان محتدماً حول هذا الاختراع . ثم عرضت هذه الطائرة عينها في شتّى معارض الطائرات التي أقيمت في برلين حيث كان يقودها قائد طيّار هو (حنّا ريتش) فأبدى براعة فائقة أسفرت عن كون الهليكوبتر صالحة للقيام بالمناورات ، قريبة من الأرض حيث تتفادى العوائق التي تعرض لها .

ومن أغرب الغرائب أن تاريخ الهليكوبتر أقدم كثيراً من سائر أنواع الطائرات ، إذ كانت موضع إعجاب علماء القرن الماضي ومثار اهتمامهم . وفي خلاله صنع كثير من نماذجها الصغيرة المحتوية على قواعدها العامة

وكانت هاتيك النماذج تؤلف عادةً من مواد بسيطة ، هي الورق وقطع الخشب وشقق المعادن . وتدار بشُرط «جمع شريط» من المطاط المبروم . وصنع أوّل نموذج لها ، على شكل لعب علمية ، صانعان فنيان هما لونوي وبيانتنو ، وذلك في سنة ١٧٨٤ ثم قدماها الى أكاديمية العلوم الفرنسية .

وفي مطلع القرن الحالي تمّ صنع أول

نموذج كبير للهليكوبترات . وكان الفضل في ذلك راجعاً الى امكان استخدام المحركات التي تدور بالبنزين لتطيير الطائرات التي تكون أثقل من الهواء . بيد أن هذه الآلات البدائية ، كانت عاجزة عن قطع المسافات الشاسعة . وإنما كان في مقدورها رفع نفسها مسافة قصيرة فوق سطح الأرض دقائق معدودات .

وفي زمن الحرب العالمية الأولى ، خطا تحسين الهليكوبتر خطواته الأولى الموفقة وكان ذلك في بلاد النمسا والمجر ، على أيدي الأستاذ كارمان وزميله اللفتنانت بتروكزي إذ فاقت قوة الآلة التي اخترعاها حينئذٍ كل سالفاتها بمراحل . وسبب ذلك أنها كانت تتحرك بثلاثة محركات ، قوة كل منها ١٢٠ حصاناً . فاستطاعت رفع الهليكوبتر الى علوّ ٤٥ متراً في الجو . غير أنها لم تكن طليقة تماماً إذ كانت مقيّدة بثلاثة أسلاك مربوطة بالأرض لكي يكفل لها الثبات في الجو .

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، صنعت في فرنسا كثيرات من الهليكوبترات . بيد أنها كانت ، على تباين أشكالها ، لا تتلاءم نتائجها مع المجهودات والنفقات التي بذلت من أجلها . وكان بينها واحدة صنعها سنة ١٩٢٤ المهندس إيهميخن تمكنت من الطيران أفقياً والارتفاع عمودياً على السواء . إلاّ أنها كانت بطيئة جداً بطأً لا يجدي نفعاً عملياً . وكانت هاتيك التجارب الفشلة باعثاً على تثبيط عزائم المخترعين حتى ظهرت طائرة الأوتوجيرو Autogiro التي اخترعها لا كيرفا La Cierva وهذه الطائرة ليست هليكوبتر Helicopter وان يكن كثير من الناس يخلطون بينها وبين زميلتها الهليكوبتر . مع كونهما مختلفتين إذ مروحتا الهليكوبتر تدوران بمحرك يتيح لها الارتفاع عمودياً وجعلها ثابتة في الجو أو هبوطها عمودياً وفقاً للسرعة التي يبغيها قائدها ، بسهولة لا تقتضي غير اغلاق صمام بنزين محركها .

أما الأتوجيرو فهي مثل الطائرة العادية ما عدا كون مروحتها أفقية لا يحركها المحرك تحريكاً مباشراً بل تدور بالريح التي تتولد بالحركة الأمامية للطائرة نفسها. وللأوتوجيرو مروحة واحدة لا غير . أما الهليكوبتر فلها مروحتان على الأقل . فاذا كانت الأخيرة ذات مروحة واحدة فانها تدور بداهةً في اتجاه مضاد لاتجاه مروحتها . واذا زوّدت الهليكوبتر بمروحتين تدوران في اتجاهين مختلفين ، وازنت كل منهما الأخرى في قوة دورانها .

ويمكن تركيب كل مروحة منهما فوق رأس أختها أو جنباً لجنب . ولكل وضع من ذينك الوضعين ، محاسنه ومساوئه . ولكن الطريقة الأخيرة منهما تولد أعظم طاقة مساعدة إذ أنها تسهل رفع أفدح الأثقال بقوّة محدودة .

أما طراز فوك من طائرات الأوتوجيرو فلا مراوح له بالمعنى المألوف لنا . ولكن عند توجيه مقدم الطائرة نحو الأرض فإن القوّة الدافعة التي تولدها المراوح المساعدة للطائرة ، تفضي الى سحبها الى الأمام في الجو . ويحدث تقهقر هذه الطائرة في طيرانها بتوجيه مقدمها الى أعلى . ولا بدّ من تزويد الأوتوجيرو بمروحة أمامية ، زيادة على جناحها الدوّار . ويتسنّى أيضاً تزويد الهليكوبتر بمروحة كتلك .

ثم ختم المؤلف الانكليزي الذي نقلنا عنه هذا الفصل ، بحثه قائلاً : « ومما لاريب فيه اننا سنتمكن في القريب العاجل من الطيران في طائرة تجمع بين مزايا طائرتي الهليكوبتر والأوتوجيرو ، إذ يتاح لنا وقتئذ بالهليكوبتر ذات المروحة التي تدفعها دفعاً أمامياً ، تحرير المراوح المساعدة للطائرة وجعلها تدور بتأثير الريح . هذا وقد كنت اقترحت تسمية هذه الطائرة الجديدة بإسم آيروجيرو توحيداً للاسماء جميعها التي أطلقها المخترعون المختلفون على الطائرات التي اخترعوها . وستصبح الأيروجيرو لسوء الحظ صالحة صلاحية رائعة للأغراض الحربية كسائر الطائرات المعتادة ، إذ تجعلها قدرتها على الثبات في الجو ، وارتفاعها وهبوطها وتحركها الى الأمام أو الخلف ، طبقاً لارادة قائدها ، صالحة جدًّا للمراقبة ، فضلاً عن كونها تسهل أحكام قذف القنابل . وتقوم بنقل الأغذية والذخيرة الى الجبهة الأمامية للقتال . وهي لا تحتاج الى المدارج . وقلما تتعرّض للاخطار لأن سرعتها في الهبوط أقل كثيراً منها في غيرها » .

عوض جندي

## انتاج عربات الشحن بالسكك الحديدية

بلغ انتاج عربات الشحن في الولايات المتحدة رقماً قياسيًّا جديداً في شهر أغسطس الماضي بسبب تنفيذ البرنامج الاختياري الذي وضعه أصحاب مصانع عربات الشحن وأصحاب مصانع الصلب . فقد بلغ انتاج شهر أغسطس ١٠ر٣٩٤ عربة أي أنه زاد على الانتاج الشهري الذي قدّر عند وضع البرنامج في شهر ابريل سنة ١٩٤٧ ، وهو عشرة آلاف عربة . وبلغ عدد العربات التي صنعت منذ شهر أغسطس سنة ١٩٤٧ حتى الآن ، ١١٥ر٤٣٩ .

ويقضي البرنامج بأن تنظم وزارة التجارة الأمريكية توزيع كميات الصلب بحسب المتفق عليه فيما بين أصحاب المصانع الى مختلف المصانع التي تنتج عربات للشحن .

* * *

ويقول اتحاد شركات السكك الحديدية الأمريكية أن هناك طلبات لشراء ١٢٢ر١٨١ عربة من عربات السكك الحديدية الجديدة لم تلب عندما حلّ شهر يوليو الماضي .

# فهرس الجزء الخامس

## من المجلد الرابع عشر بعد المئة

٣٢١ طوفان القدم : طوفان نوح ومحاولة التوفيق بين اللاهوت والعلم : اسماعيل مظهر
٣٣٩ جذوة (قصيدة) : محمد مفيد الشوباشي
٣٤٠ نظرات في النفس والحياة — تكملة نظرات جورج أليوت سويفت : ع . ش
٣٤٩ تحية عام جديد ( قصيدة ) : مختار الوكيل
٣٥٠ صورة العصر في شعر شوقي : عبد الوهاب حمودة
٣٦٠ عرس الطبيعة (قصيدة) : عبد السلام رستم
٣٦٢ في ظل القانون (قصة) : ابراهيم الابياري
٣٧٠ الموج ( قصيدة ) : عباس الخليلي
٣٧١ الذهب — تاريخه ، استخدامه ، امراضه : الدكتور حسن بك كمال
٣٨٣ الأساس الاجتماعي للأسلوب الأدبي : سلامه موسى
٣٨٨ سوق الغرور ( قصة ) : مبارك ابراهيم

٣٩٥ مكتبة المقتطف : نقد كتاب القراءات واللهجات : عبد الستار احمد فراج
٤٠٠ اخبار علمية ٭ ارتقاء الطيران وأطواره : عوض جندي . انتاج عربات الشحن بالسكك الحديدية

## لحق المقتطف

٤٩ — ٩٤ نظرية النسبية لألبرت انشتين : بقلم محمد عبد الرحمن مرحبا